غزاة في الظلام



جولات في غابة

الاستخبارات والجاسوسية

مدحت الجادر

مكتبة النهضة - بغداد

غزاة في الظـلام

مقدمة

الجماعات منذ أن وجدت ، وحتى من قبل أن تصبح دولا وحكومات ، كان لها أسرار . وكان لهذه الأسرار طلاّب يسعون وراءها بشقّ الأنفس ، ويبذلون في سبيلها أعظم التضحيات . وما هؤلاء في الواقع الا ّ غزاة في الظلام ، بيد أنهم يخوضون حربا ليس قوامها الحديد ولا النار !

هي حرب خفية ، صامتة : بدأت فجّة ، ساذجة : ثم راحت آلاف السنين تزيدها نضجا واتقانا ، حتى صيّرتها فنا خطيرا تنسلك خيوطه في نسيج الحضارات المتعاقبة .

عرفها المصريون القدماء . ففي عهد رعمسيس كان الرجال يودعون في أكياس الدقيق ، ثم يبثّون في مناطق الاعداء .

ويحدثنا هيرودوتس بأن الرسائل السريّة كانت تكتب في صورة وشم فوق رؤوس العبيد ، ثم يرسل هؤلاء الى الأهداف المقصودة .

وعرفها الكلدانيون والآشوريون والبابليون . وفي الكتاب المقدس ذكر لبعض وقائعها في أكثر من موضع ـ أهمها رسل موسى الى أرض كنعان ليكتشفوا ما اذا كانت هذه الارض مملوءة باللبن والعسل حقا !

وهي لقدمها هذا تكاد تكون جزءاً من الكيان البشري ؛ فلا عجب بعد ذلك أن تحتل مكان الصدارة من اهتمام الانسان .

وأبرز ظاهرة في التاريخ ، هي تلك السلسلة من الصدام المسلَّح : ولكن هذا لا يعنى بالضرورة ان المستقبل سيبقى على هذه الصورة • إن أدوات الدمار التي ابتلى بها العصر الحاضر ، قد تكون رادعا لتجار الحروب • ولكن تبقى هناك حقيقة لا يمكن انكارها ؛ وهي أن حرب الأسرار لن تمحى من وجه الأرض !

ومردّ ذلك أن نطاق هذه الحرب يمتد الى الاغراض السلمية أيضا • فهي ــ في شقّها الاعظم ــ ترمى الى الحصول على معلومات حول نيات العدو ، أو المنافس الفعلي والمحتمل، وقدراته ، ومنطلقات نشاطه ، لكي نستطيع في ضوء ذلك أن نتنبأ بموقفه منا ، وموقفنا منه •

وهذه المعلومات واسعة المجال ؛ فقد تتعلق بالتجارة ، أو الصناعة ، أو التقدم العلمي والفنّي ، أو الاعلام ، بل وحتى فنون أزياء النساء !

الى هذا الحد يمتد نشاط هؤلاء الغزاة ، ولهم من الوسائل الخفية المدهشة ما يحيّر العقول ، ثم جاءت التقنية الحديثة ، فزادت في مكناتهم ، وعظمت من أخطارهم ؛ فكيف يمكن بعد ذلك أن تهمل البشرية مسعاهم في يوم من الأيام ؟

لقد غدت هذه الحرب الخفيّة قرينا للمنافسة من كل نوع ؛ وهذا هو السر في أن الدول ــ ولا سيما الكبرى ــ قد جعلت غزاة هذه الحرب جزءا لا يتجزأ من ممثلياتها في الخارج • وأننا لنشهد في الوقت الحاضر ظاهرة فريدة تصدق هذه الحقيقة ، وهي قيام بعض الدول بطرد ممثلي

دولة أخرى بالعشرات ، لأنهم قد تحولوا من دبلوماسيين الى غزاة للأسرار !

وبحكم هذا كله ، صار هؤلاء الغزاة من أصناف جديدة: من الباحثين ، والعلماء ، واللغويين ، والفنيين ، ورجال علمي النفس والاجتماع · لقد أصبحوا اليوم بعيدين عن هالات الاثارة والغرابة ، بريئين من وصمة الضعة والسفالة؛ فهم أناس عاديون محترمون ، بل قد يحتلّون أعلى المقامات· حتى النساء منهم، لم يعد من اللازم أن يكن جميلات مثل دليلة وماتا هارى · وهكذا نجد اليوم في صفوف هؤلاء من الجنسين من أمثال سمرست موم ، وكلاوس فوخ ،وأوديت ،وپتروف، وآخرين من هذا الطراز ·

وقد يكون لبعض هؤلاء الغزاة بواعث خاصة تفترق عن الأهداف الظاهرة ـ ومن بين ذلك الوطنية ، أو التعصب أو النقمة ، أو الحاجة ، أو السعي وراء السلطة ··· الى غير ذلك من البواعث التي قد تنمّ عنها صفحات هذا الكتاب ·

وفي بعض هذه الفصول ظاهرة ذات مغزى ـ أشخاص من الشرق يفلتون الى الغرب وفي نفوسهم نقمة ؛ وآخرون من الغرب يصيرون الى الشرق وفي نفوسهم فتنة ؛ وهذا إن دلّ على شيء ، فانما يدلّ على أن كلاً من هذين المعسكرين ، ليس جنة تجري من تحتها الأنهار ! ولعل الأفضل في التوسط بينهما ، واقتباس الأجدى من كل منهما ؛ ثم إقامته على أساس أصيل من التراث ، والعقيدة ، والبيئة ·

ولقد تنقّلت طويلا في تيه هذه الغابة ـ غابة الاسرار، وكنت أدوّن الملاحظات والخلاصات عن كل ما أقع عليه فيها . ثم تخيّرت من ذلك كله هـذه النخبة ، فجعلتها في اسلوب القصة ، لتكون متعة وثقافـة في وقت واحد . فان وفّقت لهذا الغرض فأنا السعيد ، والقارىء هو المتفضّل عليّ بهذه السعادة .

مدحة الجادر

يستمتع الناس بعالم الخيال ، ولكنهم لا يثقون به · وهم يجدون من الغريب أن يكتشفوا واقعا يكاد يكون من صنع الخيال ·

ولهذا السبب يرى كاتب الرسالة التالية ، أن ماسمعه في الفترة التي قضاها في ڤيلّلا آكاسياس . من صاحبها ڤلاديسلو كروديك ، هو من أغرب ماسمع في حياته ·

تمت الزيارة عصرا ؛ وبينما كانت التفاصيل لمّا تزل حية في ذهن لاتيمير ، جلس في مساء ذلك اليوم نفسه ، يسطّر بها رسالة الى صاحبه اليوناني ماروكاكيس · ولم ينته من هذه الرسالة الاّ في اليوم التالي · وهاك أهم ماجاء فيها :

جنيف

السبت

عزيزي ماروكاكيس

أذكر أني قد وعدتك بأن أكتب اليك لأخبرك ما اذا كنت قد اكتشفت المزيد حول ديمتريوس · لقد اكتشفت ذلك فعلا ؛ وأني لأتساءل عما اذا كان هذا سيدهشك مثلما أدهشني ·

ومهما يكن من شيء ، فاني قد عزمت على أن أكتب اليك ، لأشكرك ثانية على المساعدة التي قدمتها اليّ في صوفيا · ولعلك تذكر أني حين تركتك هناك ، كنت متوجها الى بلغراد · فكيف إذن ، أكتب اليك الآن من جنيف ؟

لقد كنت أتوقع أن تُلقى مثل هذا السؤال · فاعلم أن الوكيل السرّي المحترف ، الذي استخدم ديمتريوس في بلغراد سنة ١٩٢٦ ، إنما يسكن الآن في أطراف جنيف ·

إني رأيته اليوم ؛ وتحدثت معه عن ديمتريوس · وبوسعي أن أقول لك كيف وقعت عليه : لقد قدّمني أحدهم اليه · لماذا ؟··· وأي شيء كان يبتغي ذلك الرجل المُقدِّم؟ هذا ما لا أتبيّن كل الجواب عنه الآن ؛ ولكنّي قد اكتشفت ذلك فيما بعد ·

واذا ماوجدتَ هذا الغموض مزعجا ، فانه لكذلك بالقياس اليّ · فاسمح لي بأن أحدثك عن ديمتريوس ·

لقد قضيت معظم النهار أتحدث الى رئيس شبكة للخدمة السرية ؛ ولا أستطيع أن أذكر إسمه ، ولذلك سوف أدعوه بالحرف (جي) · إن هذا الرئيس معتزل للعمل في الوقت الحاضر ، ولقد كان عمله فيما سبق يتصف بالصبغة الادارية بالدرجة الأولى · وقد بدأ الحديث بأن اقتبس من ناپليون قوله : إن المباغتة هي العنصر الأساسي لكل إستراتيجية ناجحة في الحرب · وينبغي أن أقول أن (جي) ثقة في الاقتباس من ناپليون ؛ فما من مرية في أن ناپليون قد قال هذا أو شيئا يشبهه · وأنا متيقّن تماما من أنه ليس أول زعيم عسكري يفعل ذلك ؛ فكل من الاسكندر وقيصر وجنكيزخان وفريدريك پروسيا يحملون هذه الفكرة ذاتها · وفي سنة ١٩١٨ فكر فيها فوش أيضا ··· ولكن لأرجع الى (جي) ·

يقول (جي) إن تجارب الحرب العالمية الأولى قد أظهرت أنه في حرب قادمة ستجعل سرعة الحركة ، والقوة الفائقة

للجيوش والأساطيل الحديثة ، وهيمنة القوات الجوية . ستجعل هذه كلها عنصر المباغتة أكثر أهمية مما كان عليه في أي وقت مضى · وقد تبلغ هذه الأهمية في الواقع أن يكسب الحرب من يقوم بالهجوم المباغت قبل غيره · وهكذا صار من الضروري أكثر مما كان في السابق ، أن يؤخذ الحذر ضد المباغتة ، وأن يتم ذلك من قبل أن تبدأ الحرب بالفعل ·

وفي أوربا الآن حوالي سبع وعشرين دولة : ولكل منها جيش ، وقوة جوية ؛ ولعلها أن يكون لديها نوع من أسطول كذلك · وهذه الجيوش والقوات الجوية والأساطيل يجب عليها ـ من أجل أمنها ـ أن تعلم بما يوجد من مثلها لدى الست والعشرين دولة الأخرى ـ ما هي قوتها ؟··· ما هي كفايتها ؟··· ماذا تقوم به من إستعدادات سرية ؟

وهذا العلم لا يمكن أن يتحقق الا بوجود عيون راصدة، بل جيوش من هذه العيون !

وفي ربيع سنة ١٩٢٦ ، كان (جي) يقيم في بلغراد : وكان عينا راصدة لحساب إيطاليا ·

كانت العلاقات بين إيطاليا ويوغوسلافيا ، يومئذ ، متوترة · فانتزاع الأولى من الثانية مدينة فيوم ، لما يزل ماثلا في الاذهان · ودارت إشاعات مفادها أن موسوليني يفكر في احتلال ألبانيا ، في حين كان هناك اقتراح لضم هذه الى يوغوسلافيا · ولم تكن إيطاليا أقل ريبة وقلقا من يوغوسلافيا ؛ فهناك النزاع حول فيوم الذي لمّا ينته ؛ وهناك ذلك الاقتراح لضم البانيا الى يوغوسلافيا ،

في حين أن إيطاليا كانت تحبذ أن تستقل ألبانيا بشرط أن تكون تحت النفوذ الايطالي .

وكانت إيطاليا تريد ان تزيل الشك باليقين حول جميع المواقف اليوغوسلافية من هذه الأمور . ولكن التوتر بين الدولتين كان من الشدة ، بحيث أن أية بادرة تقوم بها ايطاليا في هذا الاتجاه ، لربما تدفع يوغوسلافيا الى خوض الحرب .

في وسط هذا الجو ، جاءت تقارير من وكلاء ايطاليا السريين ، بأن يوغوسلافيا تعتزم عند وقوع الحرب أن تحمي سواحلها بحقول من الألغام تزرعها في شمال مضيق أوترانتو مباشرة .

وإني لا أعرف الكثير عن هذه الأمور : ولكن من الجلي أنه لا يتعين أن تملأ مائتي ميل بالألغام لتجعل منها شريطا عريضا يستعصي على المرور ، بل يكفي أن تزرع حقلا واحدا أو حقلين صغيرين من هذه الألغام ، دون أن تدع عدوك يعرف مكانهما . وهكذا يصبح على هذا العدو أن يكتشف ذلك المكان .

وكانت هذه هي مهمة (جي) في بلغراد . لقد كُلِّف ـ وهو الخبير في هذه الشؤون ـ بأن يكتشف مكان هذه الألغام ، دون أن يشعر اليوغوسلافيين بأنه قد فعل ذلك ؛ وهذا جد مهم ، لأنهم اذا شعروا فسوف يغيّرون مكان الحقول لا محالة . وفي هذا الجزء الأخير من المهمة أخفق (جي) ، وسبب إخفاقه هو ديمتريوس !

ولقد بدا لي دائما أن مثل هذه المهام يجب أن تكون معقدة وعسيرة بشكل غير إِعتيادي • والذي أعنيه هو هذا : هب أن الحكومة البريطانية قد أرسلتني الى بلغراد للحصول على تفاصيل خطة سرية لزرع الألغام في مضيق أوترانتو . فأنا في هذه الحالة لا أعلم حتى أين أبدأ ! ثم هب أني أعلم كما كان (جي) يعلم ، أن تلك التفاصيل مسجلة باشارات على خارطة ملاحية للمضيق • حسناً جدا ••• كم نسخة تحفظ من هذه الخارطة ؟ لا أعلم ••• أين تحفظ ؟••• لا أعلم ومن المعقول أن أفترض أن نسخة واحدة على الأقل تحفظ في وزارة البحرية ، ولكن هذه الوزارة مكان واسع ؛ ثم أن مثل هذه الخارطة لا بد ان تكون في حصن حصين • فلو سلمنا جدلا ـ وهذا بعيد الاحتمال ـ أني قد عرفت الغرفة التى تحفظ فيها ، فكيف أصل الى هناك ؟ وكيف أحول دون معرفة اليوغوسلافيين أني أحوم لمثل هذا الهدف ؟

وحين أخبرك أنه لم يكد يمضي شهر واحد على وصول (جي) الى بلغراد ، حتى اكتشف أين تحفظ نسخة من تلك الخارطة ، وخطط كيف يستنسخ تلك النسخة ، دون أن يعلم اليوغوسلافيون ••• حين أخبرك بذلك سترى أنه يحق له أن يصف نفسه بالداهية •

أية مناورة ماهرة ؟••• أية حيلة ماكرة جعلت ذلك ممكنا ؟ هذا ما سأحاول أن أفشيه لك بلطف •

تظاهر بأنه ألماني يمثل مصانع للأدوات البصرية في درسدن • وبهذه الصفة ، تعرف على كاتب في قسم الغواصات التابع لوزارة البحرية يدعى بوليك •

وكان اختياره لهذا الكاتب ينطوي على الفطنة · فهو رجل غير جذّاب ، يفتقد إشراقة الذهن · وكان عمره بين الاربعين والخمسين ، أي أكبر سنا من أغلب زملائه · وكان هؤلاء يمقتونه · وكان الى ذلك يعاني من إلتهاب في أنفه · وكانت زوجته أصغر منه بعشر سنين ، بارعة الجمال ، وغير راضية بنصيبها في الحياة ·

وقد دأب هذا الكاتب ، بعد أن ينتهي عمل النهار ، على الذهاب الى مقهى ليتناول كأسا من الشراب · وفي هذا المقهى تعرّف عليه (جى) · قدم اليه (سيكارا) ، فطلب منه عود ثقاب ، ثم أردف ذلك بأن ابتاع له شرابا ·

وتوثقت أواصر هذا التعارف · وكان بوليك كلما أتى المقهى مساء ، وجد (جى) قد سبقه اليها ؛ وعندئذ يتجاذبان أطراف الأحاديث المختلفة المتقطّعة · وبما أن (جى) كان غريبا عن بلغراد ، فقد راح يسأل بوليك مختلف الاسئلة عن هذا الشيء وعن ذاك · وكان هو الذى يدفع ثمن مايشربه بوليك ؛ وفي أحيان أخرى كانا يلعبان الورق مع بعض رواد المقهى ·

وفي ذات مساء ذكر (جى) لبوليك أن « أحد معارفهما » قد أخبره بأن بوليك يشغل « وظيفة هامة » في وزارة البحرية · وذهب ظنّ بوليك الى أن المخبر قد يكون واحدا من الذين يلعبان معهم الورق ، أو يتبادلان الأحاديث ؛ وهؤلاء قد يعرفون ـ بصفة عامة ـ أنه يشتغل في تلك الوزارة · وما كان من بوليك بعد أن سمع وصف وظيفته بـ « الهامة » إلاّ أن قطب جبينه ، وفتح فاه ، وأوشك أن

يعلق على هذا الوصف بشيء من السخرية الممزوجة بالتواضع. بيد أن (جى) قد انجرف في الحديث ، وقال إنه كرئيس مبيعات لمصانع محترمة جدا لصنع الأدوات البصرية ، قد أوفد للاشتراك في مناقصة حول كمية من المناظير توشك وزارة البحرية أن تطرحها . وذكر أنه قد قدم أسعاره على أمل أن يظفر بهذا الطلب . ثم أضاف إن بوليك يعلم أنه ما من شيء يفيد في مثل هذه الأمور كصديق في الدائرة المختصة ! فاذا تعهد بوليك الطيّب بأن يستخدم نفوذه ، ويمارس ضغطه ، لكي تحصل شركة درسدن على هذا الطلب ، وجد جيبه يمتلىء بعشرين ألف دينار يوغوسلافي !

وتصور هذا العرض من وجهة نظر بوليك ـ إنه كاتب عديم الشأن ، يُزفّ اليه مثل هذا الاحترام من ممثل شركة ألمانية عالية المقام ، ويُعرض عليه مبلغ يعادل كسبه في ستة أشهر ... كل ذلك ـ في الواقع ـ لقاء لا شيء يقوم به من جانبه . أجل ... ليس عليه أن يفعل شيئا قط ، سوى أن يترك عملية التنافس بين الأسعار تأخذ مجراها . فاذا رسا الطلب على الشركة الألمانية بنتيجة هذا التنافس ، كان نصيبه عشرين ألف دينار ؛ أما اذا لم يرس عليها ، فهو لن يخسر سوى إحترام هذا الألماني المظلَل ، المغفَل !

ويقرّ (جى) بأن بوليك حاول أن يكون أمينا بعض الشيء ، فراح يتمتم كلاما حول عدم تيقّنه من أن له من النفوذ مايمكن أن يساعد في هذه المسألة . وكان موقف (جى) من ذلك ، التظاهر بأنه يفهم هذا التردد على أنه ناشىء عن قلة المبلغ ؛ بيد أن بوليك احتج على هذا الفهم ، مؤكدا أن

شيئا من هذا القبيل لم يعرض له قط . وبهذا فوّت على نفســه القدرة على التراجع ، ولم تمض خمس دقائق حتى تمت موافقته نهائيا .

ولم يجد (جى) نفسه في خلال الأيام التالية ، في أي نوع من الحرج ، من جهة زعمه أنه قد قدم أسعارا للمناقصة . ذلك لأن صاحبه لا يستطيع أن يكتشف أن شركة درسدن لم تقدم أي أسعار ؛ إذ أن هذه تقدم الى دائرة التموين بصورة سرية ، ولا تعلن الا بعد أن يرسو الطلب على أحد المتنافسين. وحتى لو كان صاحبه مرتابا ، ملحاحا ، فانه لن يتوصل الى أكثر مما توصل اليه هو ــ أن الجريدة الرسمية قد نشرت بالفعل طلبا لتقديم أسعار لتزويد دائرة التموين بالمناظير .

ونشط (جى) لبقية اللعبة . لقــد كان على بوليك أن يقوم بدور الموظف المتنفّذ . فراح (جى) يبالغ في إكرامه، ويصطحبه مع زوجته الحسناء الى المطاعم والنوادي الليلية الباهظة التكاليف . واستجاب الزوجان لهذا الاكرام ، كما يستجيب النبات الذابل للمطر الهاطل .

ولكن هل يستطيع بوليك ، بعد أن يدخل في جوفه القسم الاعظم من زجاجــة (شمبانيا) من الصنف الأول ... أن يبقى حذرا ، متيقظا ؟ كــلا بالتأكيد ... إنه ، حينئذ ، سرعان ماينجرف فيجدال حول قوة إيطاليا البحرية المتفوّقة، وتهديدها للسواحل اليوغوسلافية .

لقد كان تافها يحيا حياة تافهة . وهذه أول مرة يشعر فيها بأن له رأيا ذا وزن ، وبأن هناك من يستمع إليه . ثم

عليــه ألاّ ينسى دوره الخطير الذى يجب أن يلعبــه ٠٠٠ فكيف يليق بــه أن يبدو جاهلا لما يحدث وراء الستار مــن عظائم الامور ؟

وركبه الطيش والغرور معا ٠ فراح يتعاظم، ويتبجّح٠ فكان مما قاله ، إنه قد اطلع هــو نفســه على ذات الخطط التي وضعت لتشلّ الاسطول الايطالي في بحر الادرياتيك٠٠٠ وأنه ٠٠٠ وأنه ٠٠٠ وأنه ثم حاول أن يتراجع ليبدو أكثر حصافة ، وأقل ثرثرة ، ولكن فات الأوان !

فلم يكد ينتهي ذلك المساء ، حتى علم (جى) من بوليك، أنه يستطيع ان يصل الى نسخة من الخارطة المطلوبة ، فقرر أن يحمله على جلب هذه النسخة ٠ وراح يضع الخطط بدقة، وفي الوقت نفســه جعــل يبحث عن رجل لائق لتنفيذ هــذه الخطط ٠٠٠ عن وسيط يكون في مستوى هــذه الخطورة ـ فكان أن ظهر ديمتريوس على المسرح ٠

وليس من الواضح كيف توصل (جى) الى هذا الرجل ٠ ولكني أتصور أنه كان حريصا على ألاّ يورّط أحــدا مــن أصحابه القدماء في هــذه المغامرة ٠ ويمكن أن يتفهم المرء تكتمه حول الوصول الى صاحبــه الجديد ٠ وهو يقــول إن ديمتريوس قد أُقترح عليه ٠ وحين سألت عن الجهــة التى إقترحته ، جاءني جواب غامض بحجــة أن ذلك قد تم منذ أمد بعيد ٠ ومع ذلك فان (جى) يذكر مارافق ذلك الاقتراح من تفاصيل شفوية ٠

فالرجل ـ واسمه الكامل ديمتريوس طلعت ـ هو تركي يتكلم اليونانية ، مفيد وحصيف في آن واحد ، وله خبرة في

الشؤون المالية ذات الطبيعة السرّية . وقد يستخلص المرء من هذه الأوصاف أن الرجل من فصيلة المحاسبين ؛ ولكن يبدو أن هناك لغة خاصة في مثل هذه الأمور ، وأن (جى) يفهم هذه اللغة ؛ لذلك قرر أن ديمتريوس هو رجل هذه المهمة ؛ فبعث اليه برسالة عن طريق مؤسسة مالية في بوخارست !

وبعد خمسة أيام هبط ديمتريوس بلغراد ، وتوجه الى منزل (جى) . ويتذكر الأخير هذا اللقاء بوضوح ؛ وهو يصف الرجل بأنه متوسط الطول ، بين الخامسة والثلاثين من العمر ـ كان في السابعة والثلاثين فعليا ـ أنيق بشكل مترف ، قد غزا البياض شعره من جوانب رأسه ، وله مظهر ينم عن الليونة والطمأنينة والثقة ... « أما عيناه ففيهما شيء ما عرفته على الفور ... شيء ينطوي على معنى الفجور . ولا تسأل كيف عرفت ذلك ، إذ لديّ غريزة المرأة في مثل هذه الأشياء » .

ولا تحسبنّ أن ديمتريوس قد ضيع وقته في العبث ، فهو يتكلم الألمانية والفرنسية أيضا على درجة من الاتقان . وقال بعد أن استقر به المقام : « لقد أقبلت حالما تسلمت رسالتك ... لقد كنت مشغولا في بخارست ، ولكن سرّني أن أتسلم رسالتك ، فأنا قد سمعت بك » . وراح (جى) يشرح بدقة واسهاب مايريده منه ؛ وكان ديمتريوس يصغي ببرود خالٍ من أي انفعال . وحين فرغ (جى) من كلامه ، سأل ديمتريوس :

ـ ما هو أجري ؟

ـ ثلاثون ألف دينار ٠

ـ خمسون ألف ٠٠٠ وأفضل أن تكون بالفرنكات السويسرية ٠

وتراضيا على أربعين ألف تدفع بالفرنكات السويسرية؛ وعندئذ تبسم ديمتريوس وهز كتفيه ، معبرا عن موافقته النهائية ٠

وفي هذه الاثناء كان بوليك يجد للحياة طعما لم يجده لها من قبل ؛ فهو يتنقل بين الولائم في الأماكن الراقية الغالية ٠ وشعرت زوجته بدفء الترف غير المعهود ، فلم تعد تنظر اليه بعين الازدراء والاشمئزاز ٠ وصارت بما يدخرانه من أثمان الوجبات التي يقدمها اليهما هذا الألماني الغبي ، تستطيع أن تنعم بالنبيذ المفضل لديها ، وإذ نعمت به فهي باشة ، ودودة ، جذابة ٠ وفوق ذلك كله ، سيكون لدى الزوج في خلال أسبوع عشرون ألف دينار ٠

ورسا طلب المناظير لدى مؤسسة جيكية ، وظهرت الجريدة الرسمية التي تحمل هذا النبأ عند الظهر ٠ فأخذ (جى) نسخة منها ، وكان في الساعة السادسة ينتظر بازاء مدخل الوزارة ٠ وبرز بوليك بعد قليل ، وهو أيضا يحمل تحت ذراعه الجريدة الرسمية ٠ وبدا بشكل واضح أنه يتجنب الناحية التي وقف فيها (جى) ، ولكن هذا كان ئي أثره ٠ وكان المعتاد أن ينطلق بوليك نحو المقهى ، بيد أنه في هذه المرة قد إتخذ سبيلا آخر ، لأنه لا يريد أن يلتقى الرجل القادم من درسدن ٠

واستقل (جي) سيارة أجرة ، وبعد دقيقتين كان يقترب من بوليك ، فأشار الى السائق بالتوقف ؛ ثم وثب الى الرصيف ، وحضن بوليك بسرور ، فأحدق به من جميع أقطاره . وقبل أن يستطيع الكاتب المذهول أن يقول شيئا، دحرجه الى داخل السيارة ، وجعل يصب في أذنه عبارات الشكر والامتنان ؛ ثم دسّ في يده صكا بمبلغ عشرين ألف دينار !

وأخيرا تمتم بوليك قائلا : ولكني ظننت انكم قد خسرتم المناقصة... فأرسل (جي) ضحكة كأنه قد سمع نكتة عظيمة ، ثم قال : لقد نسيت أن أخبرك بأن أسعارنا قد قدمت بواسطة مؤسسة جيكية تابعة لنا ... أنظر هل يوضح هذا لك الأمر ؟ ورمى في يده بطاقات مطبوعة حديثا تؤيد ذلك ، ثم أردف : إني لا أستعمل هذه البطاقات كثيرا، لأن أغلب الناس يعلمون أن هذه المؤسسة الجيكية هي ملك لشركتنا في درسدن ! ثم جعل يبتعد عن هذا الموضوع فيقول: يجب أن نتناول شرابا على الفور .

وكان لهما في تلك الليلة إحتفال . وما كاد بوليك يفيق من ذهوله ، حتى راح يستغل الموقف بشكل كامل ، ويمعن في السكر حتى بدأ يتباهى بقوة نفوذه في الوزارة ؛ وبلغ في ذلك حدا جعل (جي) يجد صعوبة في ضبط نفسه ، على الرغم من ارتياحه لمجرى الأمور . وعند إنتهاء المساء ، إنتحى بصاحبه جانبا ، فقال له : لقد طُلبت أسعار لتجهيز مقدّرات المدى ... فهل تستطيع أن تقدم المعونة ؟

ـ أستطيع بالطبع !

ولكن بوليك صار الآن عظيم المكر ، بعد أن ثبتت فائدة تعاونه ٠٠٠ فطلب مبلغا مقدما على الحساب !

ولم يتوقع (جى) مثل هذا الطلب ؛ ولكنه وافق بدون تردد ، وهو يضحك في سره ٠ وتسلم بوليك صكا آخر بمبلغ عشرة آلاف دينار ، على أن يتسلم مثله حين يرسو الطلب على شركات جى ٠ وهكذا صار لديه الآن ثلاثون ألف دينار من حيث لا يتوقع !

وبعد أمسيتين قدمه (جى) ، في فندق عصري فخم ، الى رجل يقال له فرايهر ثون كيسلنغ ـ وكان الاسم الآخر لهذا الرجل هو ديمتريوس ! وقد قدمه على أنه موظف كبير في وزارة البحرية ؛ فما كان من الآخر الا ان انحنى بكل روعة ؛ أما السيدة بوليك ، فقد كان تصرفه ازاءها ممتازا كذلك ـ حياها كما يحيي الأميرات ٠٠٠ ثم مست شفته قفا يدها ، في حين راحت أصابعه تداعب راحتها !

وكان ديمتريوس قد ظهر في غرفة العشاء ، من قبل أن يجرى هذا التقديم ؛ وذلك ليتيح الفرصة لجى لكى يعد المسرح للفصل القادم ٠ فقال (جى) للزوجين على سبيل التمهيد : إن فرايهر رجل هام للغاية ٠٠٠ شىء قد يشبه اللغز ٠٠٠ ولكنه عنصر خطير في الصفقات الدولية الكبيرة ٠ وهو مفرط الغنى ، ويُظن أنه يملك ناصية سبع وعشرين شركة ٠٠٠ فما أنفع أن يعرفه المرء !

وقد سُحر الزوجان لتقديمهما لمثل هذه الشخصية ؛ وحين وافق ديمتريوس على أن يتناول كأسا من (الشمبانيا) على مائدتهما ، شعرا بشرف عظيم حقا ٠ وطفقا يجهدان

ليكونا بلغتهما الألمانية المتعثّرة جليسين لطيفين · لقد كان هذا هو الذى يتعطّش اليه السيد بوليك منذ أمد بعيد ـ أن يقابل أناسا لهم وزن ··· أناسا قد يصنعون منه شيئا ! ومن يدري ؟ فلعله قد خيّل اليه في تلك اللحظات ، أنه قد أصبح مديرا لاحدى شركات فرايهر ··· وفي قصر منيف يحيط به الخدم والحشم ، ليجعلوا منه رجلا وسيدا في وقت واحد · وكان فرايهر من اللطف بحيث قال انه يحب بعد يومين ، أن يتناول العشاء مع الهر (جى) وصديقيه الساحرين !

وقد سألت (جى) حول هذا التأخير ، وقلت له أما كان من الافضل أن يطرق الحديد وهو حارّ ؟ إن تأجيل يومين قد يعطي الفرصة للزوجين لكى يفكرا · فأجاب : وهذا هو الذى اردناه بالضبط ··· أن نتيح لهما الفرصة للتفكير في الأشياء الجميلة التى تنتظرهما ··· أن يعدّا نفسيهما للوليمة القادمة ··· أن يستسلما للعذب من الأحلام ! وقد اسلمته هذه الفكرة الى الجد والرزانة ؛ ثم قطب حاجبيه بغتة فأنشد قول غوته : آه ، أيتها الآلهة ··· لماذا يكون كل شيء غير منته ··· كل شيء سوى سعادتنا ؟!

وكانت وليمة العشاء اللحظة الحرجة بالقياس الى ديمتريوس · فراح يلقى بجميع شباكه حول السيدة · قال: إنه لمن السار أن يقابل أشخاصا من أمثال (المدام) وبالطبع من أمثال زوجها أيضا ! انها ـ ومعها زوجها بالطبع ـ يجب أن تأتى لتقيم معه في باڤاريا في الشهر القادم · انه يفضل منزله هناك على منزله في پاريس ؛ أما (كان) فهى باردة في

الربيع . إن السيدة سوف تستمتع بوقتها هناك ...وكذلك زوجها بلا ريب ... هذا اذا استطاع أن ينتشل نفسه من مسؤولياته في الوزارة !

ولا مرية في أنها كانت حيلة فجّة ، ساذجة ... ولكنها تلائم هذين الزوجين الفجّين ، الساذجين . واستقبلت الزوجة هذه الدعوة بأن تناولت جرعة لذيذة من (الشمپانيا)، أما الزوج فقد تجهّم وجهه !

ثم حلّت اللحظة العظيمة : دنت بائعة الأزهار من المائدة ؛ فانتقى ديمتريوس أكبرها وأغلاها ؛ ثم ناولها الى السيدة راجيا أن تقبلها كامارة لتقديره واعجابه . وأخرج محفظته ليدفع الثمن ، فافتعل ان تتدحرج من جيبه رزمة سميكة تضمّ ألف دينار ، فتستقر فوق المائدة ! والتقطها وهو يعتذر ، فأعادها الى مكانها .

واستغلّ (جى) هذه الفرصة ، فقال : إن هذا مبلغ كبير ماينبغى أن يحمل في الجيب . ثم سأل هل يحمل فرايهر دائما مثل هذه المبالغ ؟ فأجاب هذا : كلا ... ولكنه ربح المبلغ في محل « ألسندرو » في أول المساء ، ثم نسى أن يتركه في غرفته .

وسأل فرايهر (المدام) : هل تعرف محل « ألسندرو ؟ » فأجابت بأنها لا تعرفه . حينئذ راح يعدّد مزايا ذلك المحلّ ، والفرص المتاحة للمرء لكى يكسب فيه . وقال إنه أوثق مكان للمقامرة في بلغراد ؛ لأن الحظ هو الذى يلعب الدور الأول فيه . وقد حالفه الحظ في ذلك المساء ، فربح أكثر

من المعتاد بقليل · ثم قال لآل بوليك : بما أنكما لم تزورا المحل من قبل ، فيسرني أن تكونا ضيفي هناك ·

وذهبا معه فيما بعد ، وقدم لهما الشراب ، ثم تركهما يرقبان اللعب · لعب (جى) فربح مرتين · وعندها سأل فرايهر (المدام) اذا كانت تحب أن تلعب ؛ فنظرت الى زوجها، فقال معتذرا انه يحمل القليل جدا من النقود · فقال ديمتريوس : هذه ليست مشكلة ··· إني معروف شخصيا لدى صاحب المحل ··· وكلّ صديق لي تؤدي له خدمات خاصة ؛ فاذا ماخسر بضعة دنانير ، قبل منه ألسندرو صكا أو سندا إذنيا · ثم أُستدعى ألسندرو وقُدم الى الزوجين ، ثم شُرح له الوضع ، فقال محتجا : إن أى صديق للفرايهر ليست به حاجة الى السؤال عن مثل هذه الأمور ؛ ثم إن أحدا منهما لمّا يلعب ، ووقت الكلام في ذلك يحين عندما يخسر اللاعب بسبب سوء الحظ ·

ويعتقد (جى) أن ديمتريوس لو كان قد أتاح الفرصة للزوجين لكى يكلم أحدهما الآخر ولو للحظة واحدة لما لعبا · ولكنه بادر بوليك قائلا : إني أود أن أتحدث اليك عن صفقات تجارية على الغداء ، في أحد أيام الاسبوع القادم · وكان توقيت هذا العرض جميلا ؛ فقد خيل الى بوليك كأن ديمتريوس يقول له : عزيزي بوليك ··· ليست هناك من حاجة حقا الى أن تأبه لمئات قليلة من الدنانير ··· فاني مهتم بك ، وهذا يعني أن ثروتك تتجمع ··· أرجوك ألا تخيب ظني فيك بأن تظهر أقل شأنا مما ينبغي أن تبدو في الوقت الحاضر ·

وبدأت السيدة بوليك تلعب ؛ وبعد ساعة كانت قد خسرت خمسة آلاف دينار • وعطف عليها ديمتريوس ، فدفع نحوها خمسمائة دينار من كومة نقود أمامه ؛ ثم رجا اليها أن تواصل اللعب لعل الحظ يعود ! وظن الزوج المعذب أن هذا المبلغ منحة ، ولكنه اكتشف بعد فوات الأوان أنه ليس كذلك • واستمرت الزوجة تلعب : ربحت قليلا ثم خسرت كثيرا ؛ وفي الساعة الثانية والنصف ، وقع بوليك سندا إذنيا لصالح ألسندرو ، بمبلغ اثني عشر ألف دينار ! فأمر (جى) للزوجين بشراب •

وفي اجتماع آخر ، راح ديمتريوس يمنّى بوليك بالصفقات المقبلة ، والثروات القادمة ، والقصور القائمة في بافاريا • وقال إن المرء لا يمكن ان يربح الكثير في محل ألسندرد ، دون ان يتيح للرجل شيئا من الخسارة • ثم اقترح عليه أن يذهبا ليلعبا وحدهما ، لأن النساء مقامرات فاشلات!

وحين التقيا على اللعب في الليلة الموعودة ، كان في جيب بوليك خمسة وثلاثون ألف دينار ، وهذا معناه أنه قد وضع مدخراته فوق المبلغ الذى دفعه اليه ديمتريوس • وبدأ اللعب، وتعاقبت الخسائر والمكاسب ، وتكرر الاستقراض ، وحين قرر أن يتوقف عن اللعب ، كان قد أصبح مدينا بمبلغ ثمانية وثلاثين ألف دينار ، وقد ابيض وجهه ، وتصبّب عرقه •

وأقبل بوليك في الليلة التالية ، فتركوه يربح ثلاثين ألف دينار • ثم أقبل في الليلة الثالثة ، فخسر أربعة عشر ألفا أخرى • ثم أقبل في الليلة الرابعة ، فبلغ دينه خمسة وعشرين الف دينار • وهنا طلب ألسندرو حقه ! ووعد بوليك بالوفاء في خلال اسبوع •

وكان أول شخص لجأ اليه هو (جى) • وتظاهر هذا بالعطف ، ولكنه قال ان المبلغ المطلوب كبير ، وان المبالغ التى يتسلمها من أجل المناقصات هى ليست ملكه ، ولا يستطيع التصرف فيها كيفما يشاء • بيد أنه يستطيع أن يستغني عن مائتين وخمسين دينارا من عنده لأيام قليلة ، إن كانت هذه تحقق أية فائدة •

وأخذ بوليك هذا المبلغ التافه ؛ وأشار عليه (جى) بأن يطلب المعونة من فرايهر • صحيح ان هذا الرجل يتخذ من عدم الاقراض مبدأ لا يحيد عنه ، ولكنه قد اشتهر عنه أنه يستطيع أن يخلق لاصدقائه ظروفا مناسبة ، يكسبون فيها أموالا طائلة !•• فلماذا لا يفاتحه بهذا الشأن ؟

وأقبل بوليك على فرايهر فسأله : هل يصر ألسندرو على استرداد نقوده ؟ وماذا سيحدث اذا لم تدفع له هذه النقود ؟ فتظاهر ديمتريوس بالدهشة والانزعاج ، وصرّح بأن الوفاء بهذا الدين ينبغى ألاّ يكون موضع التساؤل ، ذلك لأن ألسندرد انما قدم مساعدته بناء على توصيته هو ؛ فان لم يُوفّ هذا الدين ، كان ذلك مصدر حرج له أيضا • ثم هناك محذور آخر عند عدم الوفاء ، فان ألسندرو يحمل السند الاذني ويستطيع أن يدفع به الى المحاكم • حقا ••• انه يود مخلصا ألاّ يحدث شيء من هذا القبيل •

وكان بوليك أيضا يود ألاّ يحدث ؛ فهو في هذه الحالة سوف يخسر كل شيء بما في ذلك وظيفته • وقد يتكشف أيضا أنه قد أخذ مبالغ جسيمة من (جى) ، ولربما انتهى به ذلك الى السجن ؛ إذ من يصدق أنه قد أخذ تلك المبالغ هدية

خالصة ، دون أن يقدم لقاءها أية خدمات ؟! لقد كان مخرجه الوحيد في أن يحصل على مبلغ الدين من فرايهر بأى شكل من الاشكال •

وجعل يتوسل لكى يقرضه ديمتريوس ؛ ولكن هذا رفض بحجة أن ذلك يجعل الأمر أكثر سوءا ؛ فبدلا من أن يكون مدينا لعدوّ سيصبح مدينا لصديق! فضلا عن ان ذلك يخلّ بالمبدأ الذى يدين به ـ مبدأ عدم الاقراض • ثم قال : هناك سبيل واحد للمساعدة ••• فهل يرضى بوليك بأن يسلكه ؟

وراح بوليك يلح لمعرفة هذا السبيل بصبر نافذ : فقال ديمتريوس انه يعرف أشخاصا يهمهم الحصول على معلومات من وزارة البحرية ، لا يمكن الوصول اليها بالطرق العادية • ومن المحتمل أنه يمكن اقناعهم بدفع مبلغ يصل الى خمسين ألف دينار لقاء هذه المعلومات بعد التأكد من أنها صحيحة •

وهكذا أضاف ديمتريوس الى عنصر الخوف لدى بوليك . عنصرا آخر هو الاغراء • إن هذا المبلغ سوف يسدّد ديونه ، ثم يخرج به الى الوضع المالى الذى كان عليه من قبل أن يلتقى فرايهر • ومع ذلك فانه لم يستسلم في الحال ؛ إذ ماكاد يعلم بالمعلومات المطلوبة ، حتى انتابه الذعر والغضب معا ، فنطق بكلمات مهينة بحق ديمتريوس • فما كان من هذا الاّ أن فقد لطفه ، فرفس بوليك في بطنه ، فانثنى هذا الى الأمام وهو يتلوّى ؛ ثم رفسه في وجهه أيضا ؛ ثم حمله فألقاه على كرسي وهو يلهث ويتألم وينزف من فمه • هنالك أخبره بكل برود ان الخطر الوحيد الذى يترصّد له ، إنما يكمن في عدم استجابته لما يُطلب منه •

وراح يلقى اليه تعليماته البسيطة : إن عليه أن يحصل على نسخة من الخارطة ، ثم يأتي بهــا الى الفندق حين يبرح الوزارة في المساء التــالي ٠ وفي خلال ساعــة تصور النسخ اللازمة من الخارطة ، ثم تعاد اليه ليرجع بها الى مكانها من الغد ٠ أما المبلغ فانه سوف يقبضه عنــد جلبــه للخارطة ٠ وحذره ممــا ســوف يصيبه اذا مــاكشف القصــة للسلطات المســؤولة ٠

وأقبل بوليك بالخارطــة في المســاء التــالى ؛ فأخذهــا ديمتريوس الى (جى) ريثما يصور نسخة منها ؛ وعاد ليضع بوليك تحت رقابته ٠ وحين فرغ (جى) من عمله ، تسلم بوليك المبلغ والخارطة من ديمتريوس ، ثم انصرف دون أن يفوه بكلمــــة ٠

ويقول (جى) انه حين سمع البــاب يغلق وراء بوليك ، وهــو يمسك بالصورة السالبة للخارطــة ، شــعر بالسرور والارتياح ٠٠٠ لقد كانت النفقات قليلة ، والجهود مثمرة ، والتأخيرات غير مزعجــة ٠٠٠ وقد كسب كــل طرف من الصفقة كسبا حسنا ٠ وبقى فقط أن يعيد بوليك الخارطة بأمان ، ولم يكن هناك من سبب يدعو الى التخوّف من ذلك ٠٠٠ لقد كانت عملية مرضية من كل وجهة !

وحينئذ دخل ديمتريوس الغرفة ، ليكتشف (جى) أنــه قد أرتكب غلطة ! قال ديمتريوس وهو يمد يده :

ــ أريد أجوري ٠

ــ حسنا ٠٠٠ سنذهب الى بيتي الآن ٠

قال ذلك ثم توجه الى الباب . ولكن ديمتريوس هز رأسه وقال :

ـ إن اجوري في جيبك .

ـ هذه ليست اجورك ... انها اجوري فقط .

فأخرج ديمتريوس مسدسا ، والابتسامة ترتسم على شفتيه ، ثم قال :

ـ إن الذى أريده هو في جيبك الآن أيها الهر ... ضع يديك خلف رأسك !

فأطاع جى ؛ وتقدم ديمتريوس نحوه حتى وقف ازاءه على بعد قدمين ، ثم قال :

ـ حذار أيها الهر ...

واختفت الابتسامة من شفتيه ؛ ثم خطا فحشر المسدس في معدة جى ؛ وباليد الأخرى انتشل الصورة السالبة من جيبه ، وبعدها ارتد الى الوراء . وقال :

ـ تستطيع الآن أن تذهب .

وذهب جى . ولكن ديمتريوس كان بدوره قد ارتكب غلطة حين ترك صاحبه ينصرف .

يقول جى : لقد علمت فيما بعد أن ديمتريوس قد باع الصورة السالبة الى عميل فرنسي ؛ وان الألمان كانوا آنئذ حريصين على ارضاء بلغراد ، ومستعدين لايصال معلومات مفيدة الى الحكومة اليوغوسلافية .

قلت لجي :

ـ هل تعنى أنك قد تعمدت أن تُخبر السلطات اليوغوسلافية بسرقة الخارطة ، ووقوعها بيد الفرنسيين ، وأن هذا الاخبار قد تم عن طريق الألمان ؟

ـ أجل ... لقد كان هـذا ـ لسوء الحظ ـ الشيء الوحيد الذى استطيع فعله . لقد كان عليّ أن أجعل تلك الخارطة ـ بعد ما حدث ـ عديمة القيمة . وهذه هي غلطة ديمتريوس حين تركني وشأني . ولعله ظن أني سوف أهدّد بوليك ليأتيني بالخارطة ثانية . ولكني أدركت أني سوف لا أقبض الكثير من أجل معلومات سبق أن اصبحت في حوزة الفرنسيين . ثم ان مثل هذه المحاولة كانت ستعرض سمعتي للتشويه . وهكذا ترى أن هـذه العمليـة كان لها جانبها المرّ ... ولكن كان لها جانبها المضحك أيضا ـ لقد دفـع الفرنسيون الى ديمتريوس نصف المبلغ المتفق عليه مقدما ، ثم اكتشفوا بعد حين أن الخارطة ـ بعد اللعبة التى قمت بها ـ قد أصبحت عقيمة . وبذلك فقد ديمتريوس النصف الباقي من أجوره !

سألت : وماذا عن بوليك ؟

ـ لقد أسفت من أجله ، ذلك لأني أشعر دائما بقدر من المسؤولية نحو الذين يعملون لي . كانت بصمات أصـابعه على النسخة التى انتزعهـا من مكانها ، فقبض عليـه مـن ساعته . وبمـا أنه قد أخبر السلطات بكل مـا يعرفه عن ديمتريوس ، فقد أرسلوه إلى السجن بدلا من الاعدام . لقد كنت أتوقع أن يشي بيّ أيضا ، ولكنه لم يفعل . فأثار ذلك دهشتي ، وجعلني أتساءل : هـل كان ذلـك لأنه أراد ان يتجنب تهمة أخرى تتعلق بقبول الرشوة ،أم أنه كان يشعر بالامتنان لي ، لأني اقرضته المائتين والخمسين دينارا ؟

حسنا ياعزيزي ماروكاكيس ٠٠٠ هذا كل مالديّ ، وأحسب أن فيه أكثر من الكفاية ٠ انها لقصة بائسة ، اذ ليس فيها أبطال بالمعنى الذى تزخر به القصص ، بل فيها خبثاء وحمقى ٠٠٠ ولربما حمقى فقط ! ولكن هذا ليس الوقت المناسب لاثارة مثل هذه الأمور : يضاف الى ذلك أن عليّ أن أحزم امتعتي ٠

وفي خلال أيام قليلة سأرسل اليك بطاقة بريدية عليها اسمي وعنواني الجديد ، آملا أن يكون لديك الوقت لتكتب اليّ ٠ وعلى كل حال ، اني لأرجو ان نلتقي ثانية في أقرب وقت ٠

وتقبل خالص تحياتي ٠٠

شارل لايتمير

صنم سان ڤيتور

حين راحت ماكنة الحرب الايطالية تتداعى ، في الحرب العالمية الثانية ، كان هناك في الجيش الايطالي ضابط برتبة رئيس يقال له أندرومونتا نلـّلى • وقد قبض عليه الألمان. فبعثوا به الى سجن سان ڤيتور السيىء الصيت ، ليستجوبه ضباط الاستخبارات النازيون •

ومن داخل هذا السجن يروى لنا القصة التالية • وهى لا تتعلق به ؛ بل تتعلق بجنرال ايطالي غامض ، حـُجز في زنزانة تقابل زنزانته • والقصـة تسرد المغـامرة المؤثرة البطولية لهذا الجنرال التعس • يقول أندرومونتا نلـّلى :

تبدأ القصة في ذلك اليوم من مارت ١٩٤٤ ، حين جـُلب الجنرال ديلـّلا روفير الى سجن سان ڤيتور ، فأودع الزنزانة التى في مواجهتي • وقد علمت أن الألمان قبضـوا عليـه في الشمال ، حين أنزلته غواصة عائدة للحلفاء • ليتولى قيادة عمليات المقاومة هناك • وكانت المقاومة الايطالية ، آنئذ ، تحاول عرقلة تدفق الامدادات الألمانيـة الى جبهـة المعركة في الجنوب •

وقد أعجبت بسلوكه الارستقراطي ؛ حتـى أن فرانز الألماني الغظ المشرف على السـجن ، راح يحترمـه ، ويقف أمامه وقفة الاستعداد !

كان هذا السجن أسوأ مصانع « الاعتراف » التى يديرها الألمان في ايطاليا كلها • وكان مقاتلو المقاومة الايطالية حين يقبض عليهم ، يؤخذون الى حيث يخضعون لاستجواب أولي ،

شكلي ؛ ثم يجلبون الى هـذا المكان • وهنـا يتولى أمـرهم قوميسار الغوستابو مرلر ، مع زمرته المختارين من رجال الـ S. S. وبوسائل دخلت الآن في سجلات التعذيب الفني المتقن، كانوا يعتصرون المعلومات المطلوبة من أشد زبائنهم عنـادا وجلـــدا •

مرت ستة أشهر منـذ أن قبض عليّ • وقد استجوبت مرات عديدة ؛ فاستنزفت قواي ، وثُبطت عزيمتي ، ورحت أتساءل أحيانا : كم أستطيع أن أصمد بعد الآن ؟ وفي ذات يوم أثار دهشتي أن فتح سيرازو الحـارس الايطـالي باب زنزانتي ، فأخبرنـي ان الجنرال ديلـّلا روفير يريـد أن يراني • كان باب الجنرال مفتوحا ، كما هو الحال دائما ؛ وكان له فراشه الخاص ، في حين أننا كنـا ننـام على ألواح الخشب • وكان حليقا ، مهيب المنظر ، يضع مونوكلا على عينه اليمنى • حياني بلطف ثم قال : « الرئيس مونتا نللي؟ لقد علمت قبل أن اهبط البرّ أنك هنا • ان حكومة جلالته مهتمة جدا بمصيرك ؛ ونحن واثقون من أنك سوف تؤدي واجبك ، حتى ولو انتهى بك ذلك الى أن تقع صريعا أمام فرقة الاعدام ـ واجبك الأساسي كضابط • ولكن إسترح من فضلك » • وعندئذ فقط انتبهت الى أني قد كنت واقفا وقفة الاستعداد •

ثم استطرد يقـول : « إن الضابط هـو عريس إلهـة الموت » • وتوقف ليمسح مونوكوله ، فخطر ببالي أن الأسماء قد تعكس شخصيات أصحابها ؛ فاسم ديلـّلا روفير يعني : « من السنديان » • وهنا بكل تأكيد رجل من الخشب الصلب!

وواصل كلامه قائلا : « لقد سبق أن أصدروا حكمهم عليّ ؛ فهل اصدروه عليك ؟ » فأجبته وكأني أعتذر : « لمّا يصدر ياصاحب الفخامة » • قال : « سوف يصدرونه ••• إن الألمان قساة حين يتوقعون إعترافا ؛ ولكنهم شهمون في تقديرهم لمن يرفض أن يعترف •• إنك لمّا تتكلم ••• هذا أمر حسن ؛ وهو يعني أنك سوف تُكرّم باطلاق النار على صدرك لا على ظهرك • إنـي أحثك على أن تستمر في صمتك • ولكن اذا سُلّط عليك التعذيب ــ وأنا لا أشك في قوتك المعنوية ؛ ولكن هناك حدود للمعاناه البدنية ــ فأنا اقترح أن تعطيهم إسمي فقط ••• قل لهم أنك قد فعلت مافعلت بناء على أوامري !••• وبالمناسبة ، ماهي التهمة الموجهة ضدك » ؟

وبدون تحفّظ ، أخبرته بكل شيء • وقد أصغى إليّ كما يصغى القسيس الى من يعترف بين يديه • وكان من وقت لآخر ، يهز رأسه علامة التأييد • ولما فرغت من الكلام ، قال : « إن قضيتك مثل قضيتي واضحة ••• فكل منا قد قبض عليه ، وهو ينفّذ أوامر رسمية ••• واجبنا المتبقى هو أن نموت مقاتلين في ميدان الشرف ••• ويجب أن يكون من السهل أن نموت بكرامة !

وحين راح سيرازو يقفل باب زنزانتي ، رجوت اليه أن يبعث الى الحلاق في اليوم التالي • وقبل أن أتمدّد في فراشي ، طويت سروالي بعناية ، وعلقته على النافذة •

وقد رأيت في أثناء اليوم التالي ، كثيرا من السجناء يدخلون زنزانة الجنرال ، ثم يخرجون من عنده منتصبي

القامات ، رافعي الهامات ، قد فارقتهم الذلة والمسكنة ! واختفت الضوضاء والفوضى من جناحنا المنعزل • وهذا السجين رقم ٢١٥ ، الذى كان يملأ المكان صراخا من أجل زوجته وأطفاله ، راح حين أُستدعي للاستجواب ، يلتزم الصمت ، ويتحلّى بالهدوء •

وأخبرني سيرازو بأن كل من يقابل الجنرال ،ويتحدث معه ، يطلب من بعد ذلك : الحلاق ، والمشط ، والصابون ! وقد تأثر به حراس السجن أنفسهم : فصاروا يحلقون كل يوم ، ويتكلمون بالفصحى بدلا من العامية • وجعل القوميسار مولر ، حين يفتش السجن ، يعترف — وهو حاقد — بالتحسن العام في الانضباط والاحترام !

والداهية الدهياء ، أن « مصنع الاعتراف » لم يعد يصنع الاعترافات ! لقد أمسك نزلاؤه عن الكلام بغتة ، وصاروا يقيمون على الصمت العنيد • كان ديلّلا روفير يمنحهم من ينبوع شجاعته القوة على التحمّل ، ويقدم لهم من تجاربه النصح الثمين •

وكان يحذّرهم بقوله : « إن أخطر الساعات هى التى تبدأ بها فترة ما بعد الظهر ؛ لأن مجرد التطلع الى شىء من الراحة والسلوان قد يحملكم على الاعتراف • ولذلك ، لا تحدقوا في الجدران ••• بل أغلقوا عيونكم من حين لآخر ، تفقد تلك الجدران القدرة على خنقكم !

وكان يوبّخهم اذا ما أهملوا مظهرهم ؛ ويقول : « إن النظافة تبني الشجاعة المعنوية » • وكان يرى أن التزامهم

بالسلوك العسكري في حضرته مما يعزّز كبرياءهم · وهو لا يفتأ يذكّرهم بواجبهم نحو ايطاليا ·

وسأله أحدهم عن موقفه حين يجرى استجوابه ، فضحك وقال : لقد استجوبني صديقي القديم الفيلد مارشل كيسيلرنك ، فكانت مهمتي سهلة ؛ لأن هذا كان يعرف مقدما كل ما ينبغي معرفته ـ حاشا كيف إتفق لي أن كنت في غواصة بريطانية حين قبض عليّ · وكان من بين ما سألني : هل وثقت حقا بالبريطانيين ؟ فأجبت : ولم لا ؟ لقد وثقنا حتى بالألمان ! وكان الجنرال يجد متعة في تذكر هذا اللقاء ·

ثم بدأت اشاعة تجوس خلال السجن ، مؤداها ان الجنرال جاسوس ألماني · ومع أن الحراس الايطاليين كانوا جميعا من رواسب موسوليني ، الا أنهم كانوا يشعرون بأن هناك حدودا لما ينبغي أن يحتملوا من الاذلال على أيدى الالمان ؛ ولذلك فقد تواصوا بينهم على ان يراقبوا الجنرال عن كثب، فان تبين انه عين للألمان حقا ، خنقوه بأيديهم !

وفي ذات صباح استقبل الجنرال السجين رقم ٢٠٣ ؛ وهو مقدم افترض أن لديه الكثير من المعلومات ، ولكنه يرفض أن يتكلم · وكان بعض الحراس الايطاليين واقفين لدى الباب ؛ فسمعوا الجنرال يقول للمقدم : لسوف تعاني تعذيبا شديدا ، ولكن ماينبغي أن تعترف بشيء · إبق ذهنك فارغا ··· ارغم نفسك على الاعتقاد بأنك لا تعرف شيئا ··· ان مجرد التفكير في الاسرار التى تعرفها قد يدفع

بها الى شفيتك ! وامتقع وجه المقدم حين قال له الجنرال ما قال لي من قبل : واذا اضطررت الى الكلام ، فقل لهم ان كل مافعلت كان بناء على أوامري !

وفي عصر ذلك اليوم ، أقبل سيرازو على الجنرال يحمل اليه بعض الورد ، هدية يعبر بها الحرّاس الايطاليون عن إعتذارهم المكتوم ٠

وذات صباح أقبل الألمان ليأخذوا الضابطين پ ، و ف الى ساحة الاعدام ٠ وكانوا قد وافقوا على تلبيـة رغبتهما الاخيرة ، وهى أن يقولا كلمـة وداع للجنرال ٠ ورأيتهما واقفين لدى باب زنزانته وقفة الاستعداد ٠ ولم أسمع مـا قال لهما ؛ ولكن الضابطين إبتسما ؛ ثـم تقدم الجنرال فصافحهما ، وهذا ما لم أره يفعله من قبـل ٠ ثم تصلّب معتدلا فرفع يده بالتحية ، فرد عليها الضابطان ، ثم استدارا في طريقهما الى الموت !

وفي عصر ذلك اليوم جرى استجوابي مرة آخرى ٠ وقال لـي القوميسار مولر أن مصيري يتوقف على نتـائج هـذا الاستجواب ٠ ثم هدّد يقول : فاذا أصررت على الصمت ـ وجعلت أحدّجه بعينين مفتوحتين ، ولكني لـم أستطع أن اسمع بقية كلامه ، بل لم استطع حتى أن أراه ٠٠٠ ورأيت بدلا منـه الوجهين الشاحبين الوديعين للضـابطين پ و ف ، والوجه الباسم للجنرال ٠٠٠ وسمعت بدلا من كلامـه ذلك الصوت الهادىء الرزين وهو يقول : عريس إلهة الموت! ٠٠٠ ان الواجب الأساسي للضابط أن يموت مقـاتلا في ميـدان الشـرف ٠

وبعد ان استجوبني الألمان ساعتين بدون نتيجة كفّوا عني . ولم أعذب ، ولكني اعتقد اني حتى لو كنت قد عذبت ، لاستطعت أن أخفي كل شيء . وفي طريق عودتي سألت الحارس أن يدعني أقف عند باب زنزانة الجنرال .

كان يقرأ في كتاب ، فنحّاه جانبا ؛ ونظر الى متفحّصا وأنا في وقفة الاستعداد . ثم بادرني قائلا : «نعم ... هذا هو الذى توقعته منك ، وما كنت لتستطيع أن تفعل غير هذا .» ثم نهض فاستطرد : «أيها الكابتن مونتانللي ، لا أستطيع أن أقول كل ما أريد في كلمات ... وبما أنه لا يوجد شخص آخر يشهد علينا،فدع هذا الحارس الايطالي أن يكون شاهدا على ما نقول في أيامنا الأخيرة هذه ... دعه يسمع كل كلمة : انى راض كل الرضا أيها الكابتن ... إنى مسرور حقا ، برافو ! » .

وشعرت في تلك الليلة بأنى وحيد في هذا العالم . ولكن وطني المحبوب بدا لى أقرب ، وأعز ، وأكثر تجسّدا من ذي قبل .

ولم أر الجنرال مرة آخرى .

فلما تم التحرير ، روى لى قصته أحد الذين بقوا من معسكر فوسولي . كان هذا معسكراً للابادة ، قبيح السمعة ، يمارس طرقا للموت معقدة ومتنوعة . وقد نقل الجنرال الى هناك مع مئات آخرين في قطار مدرع . وظل محتفظا بوقاره طوال الرحلة ، وهو جالس فوق كومة من حقائب الجند ، جمعها له هؤلاء لتكون كالمقعد .

وأقبل أحد ضباط الفوستابو للتفتيش ، فأبى الجنرال أن يقف • وثبت في مكانه كالطـــود ، حتى بعد أن صفعه الضابط على وجهه وصرخ : «انى أعرفك ••• أيها الخنزير بيرتونى! » وكان الجنرال يقول لنفسه : « ولماذا أشرح لهذا الألماني الخلط الذى هو فيه ـ ان اسمى ليس برتوني بل ديلّلا روفير ، وأنى قـد كنت جنرالا في الجيش ، وأنى صديق حميم لبادو ّكليو ، وأنى مستشار فني لألكسندر ؟ » وبدون أي مظهر للانزعاج ، التقط مونوكوله فأعـاده الى مكانه • فابتعد الألمانى وهو يصب اللعنات •

وفي معسكر فوسولي،لم يعد الجنرال يتمتع بالامتيازات التي منحت له في سان ڤيتور • لقد أقحم مع الآخرين في ثكنة واحدة،وخصص له مثلهم عمل يقوم به•ولكن رفاقه في السجن كانوا يتركون له أبسط الأعمال ، ويتناوبون في أن يحلـوا محله • بيد أنه لم يحاول قط أن يتملص من عمله ، مهمـا كان عصّيا على رجل تقدم في السن • وفي الليل كان يذكر رفاقـــه في السجن بأنهـــم ليسوا مجرمين ، انهم ضــباط محترمون •

وفي الثاني والعشرين من حزيران ١٩٤٤،وقعت المذبحة في معسكر فوسولي•ولربما كانت ثأرا من انتصارات الحلفاء في جنوا•ومهما يكن من شيىء ،فقد جاءت الأوامر من ميلان بأن يختار خمسة وستون اسما من نزلاء المعسكر الأربعمائة• وبينما كان الملازم تيتو يقرأ القائمة ، وجب على الذين حق عليهم الموت أن يخطوا أمام صفوفهم•ثم نادى بأسم برتوني، فلم يخط أحد • فزأر ثانية : «بيرتوني !» وهو يحـــدق في

ديللا روفير ؛ ولكن فخامته لم يتململ . ولسنا ندرى ما اذا كان تيتو قد أراد أن يبدى بعض التسامح مع رجل قضى عليه بالموت ، فانه تبسم فجأة ثم قال : «حسنا ،حسنا ... ديللا روفير اذا شئت» . ومسك الجميع أنفاسهم وهم يرقبون الجنرال . فأخرج المونوكول من جيبه ، ووضعه بيد ثابتة على عينه اليمنى ؛ ثم قال بهدوء وهو ينضمّ الى الزمرة المنتظرة : « الجنرال ديللاروفير من فضلك . »

و'قيدّ الخمسة والستون ، فاقتيدوا الى الجدار . ثم 'عصبت عيونهم جميعا حاشا الجنرال الذي أبى ذلك بشدة، فاستجابوا لهذه الرغبة . وبينما كانت أربعة رشاشات تجلب فتوضع في أماكن الاطلاق ، تقدم الجنرال خطوات ، بهيئة ملؤها العزم والكبرياء ، ثم خاطب رفاق الموت بصوت صارم مجلجل : «أيها الضباط الأفاضل ، ها نحن نواجه التضحية الأخيرة ، فهل لنا أن ندع أفكارنا تنطلق بأخلاص لتحوم حول وطننا المحبوب ... لتعش ايطاليا !

وصرخ تيتو : « أطلق » . فصلّت الرشاشات . ثم أودع الجنرال التابوت ، والمونوكول مايزال على عينه !



إن قصة الجنرال ديللا روفير التى عرفتها بعد موته ، إنما هى ضرب من الوطنية ، ونكران الذات ، لا نظير لهما في التاريخ ، ولا يمكن ان يرقى اليهما التصديق . ذلك أن صنم سان ڤيتور لم يكن جنرالا ، ولم يسمع به بادوگليو ولا ألكسندر ، وحتى لم يكن اسمه ديللا روفير ! إنما هو مواطن

من جنوا يدعى برتوني ـ بل هـو لص ونصاب عريق في الاجرام ! وقد قبض عليه الألمان لجريمة تافهة ، ثم أدركوا في أثناء التحقيق أنه ممثـل موهوب ممتـاز ؛ واعتقدوا ان مظهره الذي ينم عن الاندفاع، وان استعداده الفطري للتمثيل، خليقان بأن يجعلا منـه أداة رائعـة لانتزاع المعلومات من سجناء المقاومة ٠

وعقدوا معه هذه الصفقة ـ يقوم بمـا يُطلب اليـه ، فيلقى معاملة خاصة في السجن ، وإفراجا في وقت مبكر ٠ ثم اختلقوا قصة ديللا روفير ، فحشروه حيث يقوم بدوره !

وحين أتى برتونى سان فيتور ، طلب من الألمان مهلـة قصيرة ، لينال فيها ثقة الأشخاص الذين سيجعل منهم ضحايا لهم ، فوافقوا على طلبـه ٠ بيد أنه كان أذكى وأبرع ممـا حسبوا ، فقد قرر في نفسه ألا يخدع أحدا سوى الألمان !

ثم جاء التحول الرائع المدهش ـ كان برتونى يمثـل دور الجنرال ديللا روفير ، فاذا به يصبح وكأنه ديللا روفير بالفعل ! ثم فرض على نفسه أن يجعل من سان فيتور مصنعا للصمت ، ومن نزلائه رجالا يضحكون من الموت ! وبوجوده المسيطر ، وشجاعته الفائقة ، وايمانه الصادق ، أشـاع بين هؤلاء المساكين الشعور بالكرامة ، والاحساس بقيمة الذات٠

ولكن المهلة التى طلبهـا لتقديم الفرائس الى الالمان قد نفدت ، وليس هناك من فرائس ! وعيل صبر مولر ، فراح يتساءل : أين الاعترافات ؟ وما بالها لا تأتى ؟ وحين طلب

برتونى في ذلك اليوم الأخير ، أن يكون الحارس شـاهداً .
كان قد علم أن لعبته قد انتهت ، وأن نهايته قد دنت : وان ذلـك الشاهد هـو السبيل الوحيد ليعرف العـالم الخارجى قصته ، ولتعرف ايطاليا بالذات أنه قد أخلص لها . وفداها بروحـه !

وفي الثاني والعشرين من حزيران سنة ١٩٤٥ ، الذكرى السنوية الاولى لمذبحـة فوسولى ، وقفت في كاتدرائية ميلان أرقب الرئيس الديني الأعلى لتلك المدينة وهو يقدس توابيت أبطال فوسولي . وكان الكردينال يعرف من هو في التابوت المكتوب عليه « ديللا روفير » ، ويعلم كذلك أنه ما من أحد له الحق في لقب جنرال كهذا الذى في داخل ذلـك التابوت ـ برتوني ... اللص ونزيل السجون السابق !

إنهم يعيشون في خطر !

حين أنشئ القسم الفرنسي في وزارة الحرب البريطانية، أُختير الكولونيل موريس بكماستر رئيسا له . وكانت مهمته تنظيم وتنسيق المقاومة ضد الألمان في فرنسا المحتلة .

بدأ عمله في مارت ١٩٤١ من العدم : إذ لم يكن لديه ممن دُرّبوا لمزاولة نشاطهم في فرنسا سوى العشرة . وبمرور الزمن صار عدد هؤلاء حوالى الخمسمائة . بيد أنهم جميعا قد أُلتقطوا بعناية ، يتقنون اللغات ، ويتمتعون بسرعة البديهة ؛ هذا فضلا عن شجاعتهم ، واخلاصهم ، واستعدادهم للقيام بواجبهم في أحلك الأوقات .

وكانوا جميعا من المتطوعين ، يعملون كضباط ارتباط بين لندن ورجال المقاومة في فرنسا . وقد ظفر الألمان بعدد منهم ، فعذبوا من عذّبوا ، وقتلوا من قتلوا ؛ وهلك آخرون في معسكرات الاعتقال المشؤومة : داشو ... بوشنوولد ... بلسن ... رافنزبروك .

ولم يكن بوسع الكولونيل بالطبع أن يفعل شيئا ، لانقاذ من يقع في يد العدو من رجاله . ولكنه راح يسرد قصة كل منهم للعالم . وكانت ثمرة ذلك كتابه المثير « مستخدمون بصورة خاصة » ؛ وقد حوى مغامرات مذهلة لبعض هؤلاء من الرجال والنساء . والفقرات التالية تروى جانبا من قصة واحد من اتباعه يُدعى پروسپر . وكان قد بعث به سنة ١٩٤٢ ، لتنظيم النشاط ضد النازيين في العاصمة الفرنسية ؛ ثم ظفر به الألمان ، فدفعوا به الى فرقة الاعدام .

يقول الكولونيل موريس بكماستر :

كانت پاريس ، بالطبع ، أهم مركز بالقياس الينا ؛ وكان من الواضح أنها أصعب وأخطر مكان نعمل فيه · وقد أقام لوكاس في صيف ١٩٤١ بعض الاتصالات المفيدة ؛ ولكن كانت هناك أسباب مختلفة تجعلنا غير قانعين بهذا القدر ، فكان من الضروري إنشاء شبكة جديدة هناك ·

وفي منتصف سنة ١٩٤٢ ، كان لدينا مرشح مثالي لهذه المهمة قيد التدريب · وهو محام يقال له پروسپر ؛ عظيم الذكاء ، حسن العلم بأحوال فرنسا ؛ وأهم من ذلك ، له شخصية توحي بالثقة في أنه يمتلك مقومات القيادة · وكان هادئا واعيا ذا عقل منطقي · وكان تدريبه ضربا من المتعة، فما لبث أن تعلم الحقائق الضرورية بسرعة وإتقان ·

وكانت منطقة پاريس نفسها تفتقر الى السلاح ؛ ذلك لأن تجهيزه بواسطة الپاراشوتات ، لم يكن يمكن أن يتم إلا في المناطق الريفية البعيدة حتى عن الضواحي ، ومن ثم وجدنا في أغلب الحالات ، أنه بعد أن يتم التجهيز في المناطق المذكورة ، يكون من العسير جدا أن نحمل الذين تسلموا السلاح على أن يرسلوه الى جماعات أخرى ، بالنظر للصعوبة والحاجة في وقت واحد · وهنا أثبتت قوة شخصية پروسپر وجودها · كان قراره حول الاضطلاع بهذه المهمة نهائيا ، وحين إستقر به الأمر هناك في بداية سنة ١٩٤٣ ، بدأ السلاح والذخيرة يتدفقان الى مختلف الجماعات بصورة مرضية ؛ وهكذا ذللت أعظم صعوبة ·

وزُوِّد پروسپر بهوية تدل على أنه بائع متجول للمحاصيل الزراعية · وراح بهذه الصفة ، يطوِّف بين الحقول في الايل دى فرانس · وخصّصنا له ساعية تدعى دينيز ، تحمل هوية تدل على أنها أخته ·

وكان پروسپر حين يتكلم ، لا يستطيع أن يخفى أثر لكنة بريطانية · فراحت دينيز تتكلم نيابة عنه في أغلب الأوقات : ولم يكن هذا ليسترعى الانتباه في مجتمع تقوم النساء فيه عادة بالكثير من الصفقات التجارية ·

وكان نشاطه في فرنسا محفوفا بالمصاعب ؛ فهو في خطر دائم من أن يلقى شخصا سبق أن عرفه في فرنسا حين كان مقيما فيها قبل الحرب · فقد يطغى الفرح على هذا ، فيتجاوز حد الحصافة ، فيفضح پروسپر الذى يسعى هناك متنكرا · وكان بعض أفراد أسرته لا يزالون مقيمين في شمال فرنسا ؛ ولكنه لم يجرأ على اخبارهم بوجوده هناك ، مخافة ان يُلحق به حماسُهم للترحيب به بالغ الاضرار ·

وقد صار مثل هذا الترحيب ، مصدر خطر جسيم على رجالنا العاملين هناك · كان الفرنسيون يجدون في الاتصال برجالنا ، والتعرف عليهم شرفا عظيما ، بل مبعثا للمباهاة الفارغة · وهذا قد يؤدى الى أوخم العواقب ·

وكان أتباع پيتان في صراع بين وطنيتهم من جهة ، واخلاصهم لرئيس الدولة من جهة أخرى ، وقد ولّد هذا الصراع لديهم بلبلة ذهنية · فمن المتوقع اذا ما علموا بمثل هذه الاتصالات والترحيبات ، ووقعوا في الحرج ، أن يبلغوا السلطات ، فتقع الطامة !

ولقد شك المشرف على الشقة التى يقيم فيها پروسپر ، ببعض نشاط هذا الأخير ، فأخذ يعانى من وخز الضمير وقد رأى لكى يتخلص من قلقه ، أن يبث شكه الى أحد معارفه • واتفق أن كان هذا من الموالين للألمان ، فزف إليهم النبأ •

وفي ذات مساء ، كان پروسپر عائدا الى الشقة ، فرأى من طرف عينه شبحا متواريا في زاوية قريبة • فعمل بالمبدأ القائل : لا تركب متن الخطر ، إذا لم تكن مضطرا • واصل السير الى أمام ، ولم يعد الى تلك الشقة مرة أخرى •

وفي ربيع سنة ١٩٤٣ ، كانت پاريس موبوءة بالاتهامات والوشايات وسوء الظن • فقد تقطع البائعة الجميلة البطاقة من دفترك المزوّر ، وهى تبتسم ابتسامة الرضى والتشجيع : ولكنك لا تأمن أن تخبر الشرطة السرية بمجرد أن تدير لها ظهرك !

كان على پروسپر ، إذن ، أن يكون حذرا • بيد أن الحذر الدائم له ضرره أيضا ؛ فهو يؤدى الى الابطاء في العمل ؛ في حين أن الرجل كان في سباق مع الزمن ، ولديه الكثير مما يجب فعله •

وهكذا كان وضعه حرجا للغاية • فهناك الشاكّون الواشون ، وهناك الاصدقاء المتحمّسون ؛ وبين هؤلاء وهؤلاء صار كأنه يسير على حبل معلّق •

وكانت عمليات الانزال من المظلات ، تعرّضه الى السير فوق ذلك الحبل • فاذا ما أخفقت إحدى العمليات ، تحتم

عليه أن يجرى التحقيق الدقيق في المنطقة نفسها ، وأن يتصل شخصيا بأعضاء لجنة التسلّم . فاذا تبيّن أن التقصير كان من جانبها ، وجب عليه أن يوجه اليها اللوم والارشاد معا ، وان يُفرض عليها الانتظار حتى تحين فرصة أخرى ؛ أما اذا كان الخطأ راجعا لأسباب فنية ، أو لسوء الأحوال الجوية ، فعلى پروسپر أن يؤكد للقانطين وللشاكين وصول شحنة أخرى ، حتى يقتنعوا بذلك فيكونوا في انتظارها .

وبعد أن لبث پروسپر في باريس أربعة أشهر ، بعث الينا بتقرير مفصل : لقد أنشأ علاقات ممتازة مع جماعات المقاومة الكبرى في پاريس ، وأحكم التنسيق بين أعمالها المختلفة . وقد تمت جميع عمليات الپاراشوت التى طلبها بنجاح . وقد كوّن فيما بين بوقيه وتور ، وبين شارتر وميلان ، عشرات الزمر ، قد يصل عدد أفرادها الى عشرة آلاف رجل وامرأة ؛ وهم وإن كانوا غير مسلحين حتى ذلك الوقت ، إلا أنهم كانوا يرحبون بمساعدته ، ويعتمدون على إتصاله الاذاعي بلندن . ثم أضاف أن الوقت قد حان لكي يفصح لهؤلاء « الأتباع » عما يريده منهم !

وكان البترول ، آنئذ ، يحظى بالأولوية لدى رجال القوة الجوية الملكية ؛ وكان مخزونه في المانيا هدفا سائغا لهم . فاقترح پروسپر أن يجري هذا العمل الطيب في فرنسا أيضا . وفي سانت كان لومونية هدف ممتاز لهذا الغرض ؛ فهنا توجد مخازن عظيمة للبترول ، تحيط بها حماية ضعيفة . ولكن من العسير جدا أن تدمر البترول بالجملة ، لأن هذا لا يتأتى بأن تلقي عليه النار ثم تولّي الدبر ! وكان پروسپر قد

تلقى ارشادات لمثل هذه العمليات، فأصر على أن يؤذن له بتنفيذ هذه المهمة بنفسه ! فأذنا له بذلك على سبيل الاستثناء ٠

وبعد أسبوعين وصل تقريره الى لندن ؛ وهو في جملته يصف العملية بأنها كانت بسيطة للغاية ٠ بيد أن بعض عباراته دلت بوضوح ، على أنه كان يخفّف من وطأتها ، ويقلل من خطورتها ، لكيلا ينتابنا الفزع ٠

وبعد البترول جاء دور السكك الحديدية ، وكل مايتعلق بها ؛ فراح الدمار يمحوها محوا ٠

وأخذت الروح المعنوية تتداعى عند الألمان ، وتتعاظم لدى الانصار ٠ وفي نيسان سنة ١٩٤٣ ، سرت إشاعة كما تسرى النار في الهشيم ؛ مفادها أن الحلفاء على وشك النزول في فرنسا ٠ هنالك اشتد الحماس حتى صار خطرا وضارا ؛ وكان لا بد من كبحه وايقافه عند حدّه ٠

ولم يكن پروسپر نفسه ليعلم صدق تلك الاشاعة أو كذبها ، ولم نشأ نحن أن نخبره بالحقيقة عن طريق الاذاعة، لأسباب تتعلق بالأمن والسرية ٠ فأعدناه الى لندن ، لاطلاعه على التفاصيل ، والتداول معه حول الخطوات القادمة ٠

وكان التقرير الذى قدّمه مشجعا للغاية ٠ ومنه يتضح أن الحلفاء سوف يلقون ــ إذا ما نزلوا في أوروپا ــ تأييدا حارا ، وترحيبا عظيما من قبل الوطنيين الفرنسيين ٠ ولكن الواقع أن الحلفاء لم يكونوا عازمين في صيف سنة ١٩٤٣ ، على النزول في القارة الأوربية ٠ وعلى ذلك وجب إضعاف

نيران حماس الفرنسيين ، دون أن يصل ذلك الى حدّ إخمادها . وهذه مهمة حسّاسة ودقيقة ، لا يقدر عليها سوى رجل من طراز پروسپر . وهكذا تقرر أن يعود الى فرنسا في أسرع وقت .

وفي الواقع ، إنه هو نفسه صار يرجو أن نسمح له بالعودة ، ولمّا يمض عليه أسبوع في إنكلترا . لقد كان يدرك أن كل يوم يتأخر فيه يزيد الأمر خطورة . وفي العشرين من حزيران سنة ١٩٤٣ ، أعلن مذيع إذاعته وصوله الى پاريس بسلام .

ثم حلّ صمت مطبق ... ثم طال هذا الصمت ! فساورنا القلق حتى أسلمنا الى اليأس .

ومضت عدة أشهر ، قبل أن نعلم ماحدث له بالضبط : كان عائدا من إحدى عمليات الانزال ، فقبض عليه في محطة سانت لازار . جرى تفتيشه ، ثم حُجز لشكوك كانت تحوم حوله . وكان هناك ضابط آخر في خدمتنا السرّية ، قُبض عليه من قبل . ومن المقابلة التى جرت بين هذين الاثنين ، إستطاع رجال الأمن الألمان أن يصلوا الى الحقيقة .

وكان فرح الألمان بالقبض على پروسپر عظيما ؛وصاروا يتباهون بأن فرنسا قد طُهّرت من « صبية » الحلفاء . بيد أنهم كانوا في الدرك الأسفل من الخطأ ؛ ففى ذلك الحين ، كان للحلفاء في فرنسا حوالى مائة وخمسين ضابطا ، وخمس وثلاثين شبكة : والكل أعين ترصد ، وأيد تعمل !

ثم قُبض على دينيز أيضا . وهى التى أوصلت الينا ـ بمعاونة سجّانة فرنسية ـ المعلومات عنها وعن پروسپر. وقد نُقل كلاهما الى ألمانيا ، وهناك أعدما رميا بالرصاص. وكان اعدامهما في سنة ١٩٤٥ ، قبيل تحرير المعسكر الذى كانا معتقلين فيه .

وفي غابة فونتينبلو ، يقوم اليوم نصب تذكارى ، تخليدا لاتباع پروسپر الذين فقدوا حياتهم وهم يؤدون واجبهم . وهو يقوم في المكان الذى تمت فيه أول عملية انزال ، على يد پروسپر وجماعته . لقد كانت خسارتنا فيهم أليمة ، وجسيمة .

أوديت ... لـن تعترف

لقد قامت أوديت سانْسَمْ بأعمال خطيـرة في ابـان الحرب العالمية الثانية ؛ ولكن تلك الأعمال تبدو أقلّ شأنا، إذا ما قيست بالبطولة التى أبدتها حين سقطت في يد العدو . كانت هذه الفرنسية بريطانيـة بالتبنّى : وقـد إستجابت لنداء الواجب في أحلك أيـام الحـرب ؛ فانضمّت الى زمرة الكولونيل موريس بكماستر ، في القسـم الفـرنسى لوزارة الحرب البريطانية . وبعـد أشـهر من التدريب المرهق ، أطلقت في فرنسا في أثناء الاحتلال الألمانى ، لتقدم المعـونة للحلفاء وللمقاومة .

وقضت ستة أشهر في انجازات رائعة ، ثم قبض عليهـا الالمان : فاظهرت إذ ذاك من الصبر والتضحية والجلد ماجعلها في مصاف الابطال . وليس هناك شيء خيالى في كتاب (أوديت) الذى وضعه الميجر تـكِل ، فهو بعـد أن اطلع على المضانّ الرسمية ، يصف بشكل حيّ وأمين حياة هذه الفتاة من أوائل طفولتها ، الى مغامراتها في فرنسا ، الى معاناتها علـى يـد الغوستابو .

إن الفقرات التالية ملخصة من الكتاب المذكور ، وفيهـا الكثير من دواعي المرارة والألم ؛ ولكن ما مـن شيء يجعلنا عظماء مثل ألم عظيم ! :

فيحوالى الساعةالسادسة من ذات صباح،فتح بابالزنزانة ١٠٨ ، وصاح صوت : « محكمة » !

فاضطرب قلب أوديت ، وسحبت نفسا طويلا مرتجفا · لقد كانت تعلم أن استدعاء الغوستابو لها أمر لا بد منه ، وكانت تتوقعه كل صباح منذ وصولها الى فرسن قبل أسبوعين تقريبا ، وكانت قد وطّنت نفسها على تقبله بسكينة ··· ولكن مع ذلك كله ، فان مجرد علمها بأنه قد أصبح حقيقة واقعة ، جرّدها من قوتها بصورة موقتة · لقد أستدعيت نساء أخريات الى رقم ٨٤ في شارع فوشي ، فعاد قسم منهن دون أن يقلن شيئا عما حدث هناك ؛ ولكن أغلبهن لم يعدن ، فحل نزلاء جدد في زنزاناتهن · وجلست أوديت في فراشها تستعرض القصة التي قررت أن تقدمها الى المستجوبين ، فاحصة كل كذبة لكيلا تكون فيها زلة · ثم صُبّت لها القهوة من فتحة في الباب ، فشربتها بشره إذ كان فمها جافا · وهمست الى جارتها ميشيل أنها قد أستدعيت أخيرا « للمحكمة » ، فقالت هذه إنها تأسف لأول مرة في حياتها لأنها غير مؤمنة ··· « فلو كنتُ مؤمنة لصلّيت من أجلك ·· إني سأظل خائفة عليك طيلة النهار » ·

أُخذت أوديت من السجن في الثامنة صباحا ، وعادت في وقت متأخر بعد الظهر · وحين ابتعد حراس الـ S.S نصبت سلّمها فصعدت ، فنادت بصوت واطىء من فتحة التسخين :

ــ هالو ، ميشيل ·

ــ سيلين ، هل عدت ؟

ــ نعم ، لقد عدت ·

ـ إخبريني بما حدث ٠٠٠ أخبريني بكل شيء ٠٠٠ لقد كنت خائفة عليك كل النهار ٠

ـ لم يكن هناك من داع للخوف في هـذه المرة ٠ لقـد أخذوني في « وعاء السلاطة »(١) الـى شـارع فوش ؛ ثـم أودعوني في غرفة صغيرة ، فأغلق علي الباب ٠ وانتظرت هناك ثلاث سـاعات ، ثم قدم الـي غداء فخم : لحـم ٠٠٠ وبطاطا ٠٠٠ ومرق ٠

وتنهدت ميشيل ، في حين استطردت أوديت :

ـ لقد عرفت القصـد من هـذه الوليمة ٠٠٠ إنهـم يريدون قبل الاستجواب أن يشيعوا في الخدر والنعاس ! فأخذت حذرى ، وأكلت نصف الوجبة ٠ لقـد أخفيت لـك بطاطة واحدة ، وسوف احتال في ايصالها اليك ٠

ـ بطاطة ٠٠٠ يا إلهي !

ـ ثم استدعاني القوميسار ٠ إنه شاب جميل ، ناعم يشع نظافة ، ويفوح عطرا ٠ وألقى علي كومة من الاسئلة بكل أدب ، وأنفق في ذلك ساعتين كاملتين ؛ ومع ذلك لـم يستطع أن يكتب في ورقتـه الكبيرة شيئا ذا بال سوى ثلاثة أسطر ! وفي النهاية قال لى إننا سوف نلتقي ثانية ٠٠٠ ثم عادت بي « ماريا السوداء »(١) الى هنا ٠ وهذا كل شيء ٠ إني الآن سأتطلع من النافذة لأرقب غروب الشمس ٠

آه ! يالي من إمرأة محظوظة ٠٠٠ أذهب الى شـارع فوش ثم أعود كما أنا !



(١) المقصود حافلة السجن ٠

ـ محكمة !

ـ ولكن ... لقد ذهبت أمس الى المحكمة ؟!

ـ ستذهبين اليوم ثانية ... محكمة ، محكمة !

وأُغلق الباب بعنف . وهجس في نفس أوديت هاجس بأن الأمر في هذه المرة ، سيكون عظيم الوطأة . لقد أخبروها في انكلترا عن قوميسارى الغوستابو : إنهم اللب المنتقى من هذه الزمرة ؛ شباب أنيقون ، نظيفون ، قد دُربوا تدريبا طويلا دقيقا في مدرسة هملر رقم ١ . وهم لا يرتدون بزة رسمية ، ولا يشبهون الأدعياء العاديين من رجال الـ S.S ومهمتهم الأولى حمل الأشخاص على الكلام ! والجسم البشرى في نظرهم ، ماهو الا مادة خام تُقسم الى مناطق للألم المبرح . فالشخص ، ذكرا كان أو أنثى ، هو بالقياس اليهم موضوع ... رقم ... وحدة ! أو هو مجرد شفرة قادمة من سجن فرسن ؛ ولكنها شفرة ذات لسان وأعصاب حساسة . وهذه الاعصاب اذا شرطتها ، نطق اللسان بما يطلب من الكلام .

إنهم أخصائيون أكفاء للغاية ، ويفخر بهم أسيادهم : ذلك أنهم لا يقبلون الصمت جوابا ، مادام « موضوع » استجوابهم يتنفس ! وأحيانا يكون الموت أرحم راحم ، فيتلقف الضحية من بين أيديهم ... أما هم فيجر عليهم التوبيخ الشديد !

وأخبرت أوديت صاحبتها بأنها ذاهبة الى الغوستابو كرة أخرى ، فقالت :

ــ أوه ... الى هناك ... وفي يومين متعاقبين ؟ ماأرى في هذا الأمر خيرا ... إني سأكون قلقة عليك طوال النهار .

سيلين ... اذا أُتيحت لك الفرصة ، فأجلبي لي بطاطة أخرى !

ــ ميشيل ... لا أخالني اليوم أستطيع أن أصرف همي الى البطاطا ، ولكن اذا أتيحت الفرصة فسأفعل .

ــ حاولي يا سيلين ... ان الجوع يفعل في معدتي فعل الرمح .

الى المساء .

ــ الى المساء .

وشربت أوديت قهوتها ، ثم راحت تتأمل دولاب ملابسها البائس . وأخيرا ارتدت ثيابها المتيسرة فيه ، والجورب الحريرى الوحيد الذى تمتلكه . وقبل الثامنة بقليل ، أقبل حراس السجن فاقتادوها الى « ماريا السوداء » . وكان صباحا جميلا ، رقّطت فيه الشمس أديم الساحة .

كانت الحركة في رقم ٨٤ بشارع فوش ، أشد مما كانت عليه بالأمس . وأُخذت أوديت الى غرفة في الطابق الثالث ، ثم أستدعيت الى حجرة الاستجواب على الفور . ووجدت نفسها ثانية أمام ذلك القوميسار الشاب اللطيف نفسه جالسا الى منضدته ، وقد بسط فوقها تلك الملاحظات القليلة التى دوّنها بالأمس . كان في أتم الحيوية والنشاط ، فكأنه قد فرغ من الحمام البارد لتوه ؛ وكذلك شمّت

رائحة ذلك العطر اللطيف • وأشار الى كرسي في مواجهته فجلست عليه وظهرها الى الباب • قال بفرنسية تكاد تكون متقنــة :

ــ ليز ••• لقد أضعت الكثير من وقتي بالأمس ، ولن أسمح لك بأن تضيعي منه المزيد • هناك ثلاثة أسئلة أريد جوابها • الأول : أين هــو عامــل اللاسلكي الذي يدعى آرنو ؟

فلم تجب •

ــ سوف نرى • لقد أرسلت الضابط البريطاني روجر مــن سانت جوريو الى عنوان في جنــوب فرنسا ، فأريد أن أعرف هذا العنوان •

فلم تجب •

ــ سوف نرى مرة أخرى • أنك قبل القبض عليك بيوم أو يومين ، قد حصلت من خائن فرنسي على مخطط لأحواض السفن في مارسليا • ولم يُتح لك بعد الوقت الكافي لارسال هذا المخطط الى انكلترا ؛ فأريد أن أعرف أين هو الآن ؟

فلم تجب •

ــ ليز ، إن في تصرفك هذا شيئا يهيجني • هذه ثانية الأسئلة : أين آرنو ؟ ماهو العنوان في جنوب فرنسا ؟ أين مخطط مارسيليا ؟ أمهلك دقيقة واحدة لاعطاء الأجوبة •

ثم نظر الى ساعة يده ؛ وكانت ساعة معقدة فيها الكثير من المعلومات الثانوية عن الاجزاء الفرعية للأوقات الأبدية •

قـــال :

ـ حسنا ياليز ، أريد الآن أجوبة أسئلتي ٠

ـ ليس لديّ ما أقوله ٠

ـ هذا هو الحمق بعينه ؛ فلدينا الوسائل التى تجعلك تتكلمين ٠

ـ أنا عليمة بوسائلكم ٠ هل تظن أننا نأتي من انكلترا الى فرنسا دون أن نعرف الشيء الذى تستطيعون أن تصنعوه بنا ؟ عليك أيها السيد أن تعترف لنا ببعض الفضل ٠

وتسلّل الآن الى الغرفة رجـل آخـر ، فوقف خلف كرسيها ؛ فأمسـك بذراعيها وجعلهمـا وراء الكرسـي فتقدم اليها القوميسار ، وجعـل يفتح أزرار قميصها على مهله ، فقالت :

ـ إني أشمئز من أن تقع يدك عليّ أو على ثيـابي ؛ فلو قلت لي ماذا تريدني أن أفعل ، وأطلقت إحدى يديّ ، فسأفعله ٠

ـ كما ترغبين ٠ إفتحي قميصك ٠

ففتحت زرّين من الأعلى ، فسحب الرجل الذى خلفهـا القميص الى الوراء ، بحيث تنكشف ثنيات عمودها الفقري٠ ثم تناول قضيبا محميا الى درجة الاحمرار فوضعه على الفقرة الثالثـة ٠ فمالت أوديت الى الأمام ، فتحرّك فم الشـاب الجميل ، فجاءها صوته من بعيد :

ـ أين آرنو ؟

ـ ليس لدي ما أقوله ٠

ـ إنك أكثر من حمقاء ٠

وفتح علبة سكائره فقدمها اليها ، ثم أشعل مقدحة ٠ فهزت أوديت رأسها صامتـــة علامـــة الرفض ٠ فقال وهو يبتســـم :

ـ هذا حسن ٠٠٠ ولكني أؤكد لك ان هذه السكائر ليست مسمومة ، وها أنذا أدخن إحداها ٠ هل أخبروك في مدرسة الهواة في نيوفورست أن تكوني حذرة من السكائر المسمومة ؟٠٠٠ على كـــل حال ، أنت تعرفين الآن الاسئلة الثلاثة ، فهل أنت ـ بعد الفاتحة الشهية ـ مستعدة للاجابة، أم أنك تريدين الوجبة الكاملة ؟

ـ ليس لدي ما أقوله ٠

فدنا منها وعلى شفتيه نصف ابتسامة ، ففاحت منـــه رائحة الحمام والكولونيا ٠ قال :

ـ لربما تفضلين أن تخلعي حذاءك وجوربك بنفسك ، والا فاني خبير بفك الحمّالات النسائية !

ـ سأخلعهما بنفسي ٠٠

ذلك أن تعذيب هذا الألماني النظيف ، المعطر ، قـــد يطاق ، أما مسّه اياها بيده ، فهـــذا ممـــا لا تطيقه على الاطلاق ٠ فأخرجت قدمها من الحذاء ، ولفّت جوربها الى الاسفل ، ثم لملمت تنورتها فوق ركبتيها ٠

قال القوميسار :

ـ ليز ··· إن زميلي هـذا سيقلع أظـافر قدميـك واحدا واحدا ، بدءا بالاصبع الصغير للقدم اليسرى · وفي أثناء القلع سأكرر أسئلتي · وانت تستطيعين في أية لحظة أن تضعى حدا لهـذه العملية ؛ وذلك بأن تجيبي على تلك الاسئلة · هناك من يغمى عليه بعد الظفر الثالث أو الرابع، ولكني ما أظنك من هؤلاء القوم · ومع هذا ، اذا حدث أن أغمي عليك بالفعل ، فاننا مستعدون لانعاشك ثم نواصل الاحتفال ! والآن قبل أن نبدأ ، أين آرنو ؟

ـ ليس لدي ما أقوله ·

وانحنى زميله عند قدميها · كان شابا دون الثلاثين ، له جمال البحر المتوسط وسمرته ؛ ولكن له سمة مريعة غير بشرية · نظر اليها بعينين زائغتين ، فلم ير فيها امرأة··· بل شيئا حسـاسا يتصل بقدم حافية !

تناول قدمها اليسرى ، ثـم راح بيده اليمنى يعمل كماشة فولاذيـة في ظفرها ··· فتدفقت شـبه دائرة من الدم ، ثم سقط الظفر على الأرض · قال القوميسار :

ـ هل يهمك الآن أن تخبريني بعنوان آرنو ؟

فحاولت أن تجيب بالنفي ، ولكن الصوت لم ينبعث من فمها · فاكتفت بأن هزت رأسها · فأومأ الى الشاب الجاثي عند قدميها ، بينا جلس هو على حافة المنضدة يأرجح قدميه · فأطبقت الكماشة على الظفر التالي بقوة ، ثم راحت تتراجع

ببطء : تارة الى الوراء ، وأخرى الى اليمين ، وثالثة الى اليسار . وأخيرا أفلتت والظفر بين فكّيها ، بينا أطبق على أوديت ألم فظيع جعل يتنقل في رجليها من اصبع الى اصبع، ومن قدم الى قدم ، وهي لا تطلق صرخة واحدة . وفي غمرة ذلك كله ، طن السؤال في أذنيها .

ومضت فترة كأنها الأبدية ، نهض بعدها معذّبها والكماشة بيده ؛ وجعل ينظر الى القوميسار بخنوع ، منتظرا المزيد من الأوامر . وحملقت أوديت غير مصدقة ، في الفرن الدموي في قدمها ، وفي الاظافر المبعثرة فوق الأرض ــ نتاج طب للأقدام من عمل الشيطان ! وكانت أصوات أبواق السيارات في الشارع ، تصعد اليها في الجو المشمش ، هزيلة، مضطربة كالحشرجة ، في حين راحت تشعر بألم اضافي في راحتي يديها .

وجاءها صوت القوميسار :

ــ حسنا يا ليز ، أظن أنك ستجدين من المريح أن تمتد على كعبيك لبعض الوقت ... والآن ، أحب أن أقدم لك شرابا : قدحا من النبيذ ... قليلا من البراندي ... أو أفضل من ذلك ، كوبا من الشاي ...

ثم تبسم ، فقال :

ــ في انكلترا ، البلد الذى تبنّوك فيه ، يكون كوب من الشاي علاجا لجميع الشرور ... سوف أسمح لك ببعض الشاي ... إنك امرأة ذات تحمّل مذهل !

وأخذت تشرب الشاي وجسمها يرتعد ؛ في حين راح القوميسار يتحدث اليهـا في مراح ، ولكنها كانت لا تكاد تسمع منـه كلمـة • كانت تشعر كأنهـا تغرق في موجات متعاقبة من الغثيان ، فتحاول يائسة ان تبلغ الساحل • ثـم إنتهى الغثيان : فاستعادت جدران الغرفة شكلها وصلابتها• ومالت اوديت في كرسيها الى الخلف ، فأغلقت عينيها • ومع أن أصابع قدميها الممزقة ، قد صارت عشرة مراكز منفصلة للألم المبرّح ، الاّ أنهـا قد شعرت بشيء من الزهو يطغى عليها ــ لقد كانت أوديت حقا ••• وقـد لاذت بالصمت المطبق • وكان لديها الآن دافع يكاد لا يقاوم لأن تتكلـم بحريـة ، وأن تضحك ، وأن تثرثر ••• بأي شيء يخرج أصواتا بلسانها ومن فمها ! ولكنها أدركت إذْ ذاك أن هذا الاحساس بالظفر هـو الخطر بعينه ؛ وهو ماكان رجـال الغوستابو يريدونها أن تشعر به • فان شعورها بالراحـة وبالنصر ، يمكن أن يكـون في أيديهـم سـلاحا أمضى من الكماشة الفولاذية ! وجعل القوميسار يراقبهـا كالقط ، كمـا لو كان عليمـا بمجرى أفكارها • وفتحت عينيهـا فتطلّعت اليه • ومثلما كان هو يراها مجرد جهاز عصبى ، كانت هى تراه الآن ليس قوميسارا من الغوستابو ، بـل حتـى ليس انسانا البتـة ••• لقـد صارت تراه علـى حقيقته ــ مخلوقا أفرغت منه كل رأفة انسانية ، وكـل فهم بشري ، ثم ملىء الفراغ الذى تُرك بالكفران ، بعمد وإتقـان !

وارتسمت على فمه نصف ابتسامة ، ثم قال :

ــ حسنا ••• كيف تشعرين ؟

ـ ليس لدي ما أقوله .

ـ اننا من ناحية الحديث صار كل منا يسأم الآخر ... أنا أكرر الأسئلة نفسها ، وأنت تكررين الأجوبة عينها . ولا مرية في أنك تخالين نفسك في هذه اللحظة بطلة ، وتنظرين الي كوحش . أنا لست وحشا ، بل خادما لسيدي الفوهرر ، أدولف هتلر ؛ ولا أأسف على ماأفعل . فينبغي أن تعلمي أني لن أقف عند شيء في سبيل الحصول على المعلومات التى أريدها ... في الليلة الماضية ألقت القوة الجوية الملكية اللطيفة ألفي طن من القنابل فوق دورتموند . ولست أدرى كم من الرجال والنساء والأطفال الألمان الطيبين ، قد قتلوا أو شوهوا أو أحرقوا . فاذا كان القتل بالجملة من قبل الطائرات المذكورة يعتبر عملا مشروعا من أعمال الحرب ، فهل تظنين أني أقيم وزنا لما تعانيه امرأة فرنسية واحدة ، عنيدة ، مارقة ؟!

ـ إني يهمني ياسيدي أن أرى أنك تعتبر من الضروري أن تدافع عما فعلت منذ قليل .

ـ لا شيء من هذا القبيل ... نحن الألمان ليست بنا حاجة للاعتذار عن انفسنا الى الأجناس الخاضعة لنا . فهل ستجيبين على أسئلتي ؟

ـ كلا .

ـ اذن سأوعز بأن يفعل بأصابع يديك مثلما فعـ بأصابع قدميك .

وحدقت أوديت في يديها ، والأظافر الوردية ، واللحم الحي المحيط بها ؛ ثم انتقلت عيناها الى أسفل ··· الى الكتل المتخلفة عن العملية التى أجريت لقدميها : فتقلَّبت معدتها من الخوف والتقزّز · وسمعت الباب يفتح ، ثم صوت خطوات في الغرفة · فقفز القوميسار الى وقفة الاستعداد ، وأدى التحية · وتقدم الى المنضدة رجل في ملابس مدنية ، فنظر عرضا الى الحثالة الدموية على الأرض، ثم حدث القوميسار حديثا قصيرا بالالمانية ، ثم هز كتفيه وخرج ·

قال القوميسار :

ـ يقول الميجر أنى أضيّع وقتى معك ، فانك لن تتكلمى مطلقا · ويبدو أن لديه فكرة أسمى من فكرتي عن جلَد الفرنسيين ، وإن كنت لا أتفق معه · أنت امرأة محظوظة ياليز ، فقد أمر الميجر أن تتركى الآن وشأنك · ولكن لست أشك في أننا سوف نلتقى مرة أخرى ·

ثم أصدر أمرا ، فوضع الرجل الأسمر الكماشة على المنضدة · وحين نطق هذا لأول مرة ، أثار الرعب في نفس اوديت ··· فلقد قال بلغته الفرنسية الفصيحة :

ـ اسمحي لي ياسيدتي !

ـ فتناولت حذاءها وجوربها ، وسعت تتعثر في ألم شديد نحو الباب ·



وفي الزنزانة ١٠٨ في فرسْن ، جعلت أوديت تصنع في وهن من ملابس السجن أشرطـة ، ثم تبلّلها وتعصب بهـا قدميها • ثم إستلقت على ظهرهـا فوق الفراش ، وسكنت كأنها جثة هامدة •

وسمعت ميشيل تناديها ، فرغبت في ان تذهب الى الكوّة لتعتذر عن عدم وجود بطاطة لديها ؛ ولكنها عجزت عـن تحريك عضلة واحدة • وراحت أشـعة الشمس تتحول الى اللون البرتقالي ، والعتمة تطبق على زنزانتها •

وفي الفترة مابين الغسق والظلام ، فتح قفـل البـاب ودخلت امرأة من الـ S.S تحمل وعاء الحساء ، فوضعته الى جانب الفراش • وكانت أوديت أضعف من ان تجلس ومن أن تشرب ؛ فبقى الوعاء في مكانه لم يمسّ • وقد تذكرت وهى في سكونها وصمتها ما ملأ نفسها رعبا وغثيانا ـ تذكرت ما سمعته حول أشياء أخرى يفعلها الفوستابو بأجساد النساء !

وفي وحدتها وسط بهمة الزنزانة ، أخذت تشفق من أن تنهار قواها في النهاية •

« جوي » تضلل اليابانيين

لعل النصر الأمريكى في الفيليبين ، في الحرب العالمية الثانية ، انما يرجع الى حد ما الى مغامرات فيليبينية تدعى جوزيفينا گيرورو . لقد أوتيت هذه الفتاة ذكاء وشجاعة نادرين : فراحت تخاطر بحياتها لتجمع المعلومات عن التحركات العسكرية اليابانية ، ثم تنقلها الى القوات الامريكية . وكان هؤلاء يطلقون عليها اسم « جوي » تحببا ؛ وقد منحتها الولايات المتحدة أرفع مكافأة تمنح لمدني من أجل خدماته الحربية ـ مدالية الحرية ؛ كما منحها الكردينال سپلمان قلادة رفيعة ، إقرارا بعزيمتها الدينية ، وتضحيتها من أجل الآخرين .

لقد أرادت جوزيفينا في صغرها أن تكون راهبة ؛ ولكن إصابتها بالسل حالت دون ذلك . ثم توفي والداها ، فأخذتها جدتها الى احدى مزارع جوز الهند ، وهناك إستردت عافيتها . وأقامت بعد ذلك مع عمها في مانيلا ، وهنا أحبها الطبيب الشاب رينا توماريا گيريرو فتزوجا . وبدا لهما مستقبل مشرق . ولكن جوى بدأت في شتاء ١٩٤١ تفقد القوة والشهية ، وتظهر عليها الأورام . فقلق زوجها وعرضها على أخصائي ، فأنبأها هذا بأنها مصابة بالجذام ! ولكنه أضاف : « انه لما يزل في مرحلة أولية ... وأنت شابة في الثالثة والعشرين ... ثم هناك طرق للعلاج تبشر بالشفاء . ولكن الأطفال شديدو التعرض لعدوى هذا المرض ، فينبغي أن تبتعدي عن طفلتك ! »

وراحت تصلّي الساعات الطويلة ، من أجل ان يمنحها الله الصبر والقوة على فراق إبنتها سنثيا وهى في الثانية من عمرها ••• وأنه لفراق عسير طويـل ! وحين عادت الـى البيت من عيـادة الطبيب ، وجدت إبنتها تلعب في غرفتها : فكان لها موقف كأنه الموت ـ فان عليهـا أن تبعث بهـا الى جدتها دون أن تمنحها حتى قبلة الوداع !

وكان المصابون بالجذام ملزمين ، حين يسيرون في شوارع مانيلاّ ، بأن يقرعوا جرسـا ، لكـى يتحاشاهم الآخرون • ولكن الأطبـاء أعلمـوا الزوجين ، أن هـذا المرض ضعيف العدوى بين الكبـار ، وأن جوى ليست مصدر خطـر على عابرى السبيل •

وبدأ الزوجان ينظمان صراعهما مع المرض ، ويوفران الراحة والعنايـة الطبية الشديدة • ولكن القدر حال دون ذلك • فبعد ثلاثـة أسابيع وقـع حـادث پيرل هـاربر : فاضطربت الأمور ، وصار الجنـود اليابانيون يتسكعون في شوارع مانيلا •

وفي ذات يـوم ، كانت جوى تسير مـع زميلات لهـا : فاعترضهن جنود يابانيون ، وأبدوا رغبتهم الدنيئة • فما كان مـن جوى الا أن انتقت أضخمهم ، وراحت تهوى علـى رأسه بضربات شديدة بمظلتها ، حتى لاذ هو ورفاقه بالفرار • وحين جنّ الليل ، اذا باحدى تلك الزميلات تتصل بها هاتفيا، وتقول لها : تعالى الى منزلنا • ثم أغلقت الهاتف •

كان زوج تلك الزميلة في انتظارها · فقال لها على الفور : ان امرأة لها مثل روحك وشجاعتك خليقة بأن تنضم الى المقاومة · انك من النوع الذى نريده لخدمتنا السرية · ثم أخبرها بأن المقاومة الفيليبينية ـ مساهمة في اعداد الخطط لتحرير الجزر ـ ترسل المعلومات عن اليابانيين الى ماك آرثر في استراليا · فهل تنضم اليهم ؟ قالت جوى : انى لا أستطيع أن أقوم بعظائم الامور ، ولكن حتى القليل ينفع ... حسنا ، انى موافقة ·

وأُعطيت هذه المهمة للاختبار : قالوا لها : انك تسكنين بازاء ثكنة يابانية ، فنريد منك في خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة أن تحصي كم يابانيا يخرج ويدخل ، وفي أي وقت ، والى أي اتجاه · ونريد مثل هذا الاحصاء بالقياس الى المركبات أيضا ·

وكمنت جوى وراء نافذة عليها ستار ، وراحت تحصي كل شيء يمر وفي أي وقت · وجاءت حافلة مملوءة بالجنود ، فلم تكتف بعد هم ، بل لاحظت ان عليهم الأوساخ كما لو كانوا قادمين من الميدان · ثم حملت الى العنوان الذى أعطي لها دفترا مملوءاً بالملاحظات · وهناك وقّعت على قسم بالمحافظة على السرّية ، والتزام الولاء · وهكذا اِنسلكت فيما تسميه هى : « حربي الصامتة » · وقد ظلّت في هذه الحرب ثلاث سنين كفيلة بتحطيم أقوى الأعصاب !

وكلّفت بمراقبة السواحل ؛ فاكتشفت عيناها الحادتان مدافع يابانية مخفية ضد الطائرات · فرسمت

مخططا لمواقعها ، وحملت سلة من الفاكهة أودعت المخطط في بطن احداها . فأوقفها جندى يابانى ، وجعل ينبش الفاكهة حتى إنتقى بشره أكبرها ؛ ومن حسن الحظ أن جوي كانت قد وضعت المخطط في ثمرة صغيرة . ولكن هذه التجربة كانت درسا لها ؛ فمن بعد ذلك صارت تختزن الملاحظات في ذهنها ، ثم تجعلها على الورق في منزلها .

وكانت من بين الفتيات اللواتى سمح لهن بجلب الطعام الى السجناء الفيليبينيين والامريكيين . وكان هؤلاء يكادون يموتون جوعا وخوفا : فجعلت تقدم لهم الشجاعة والايمان والطعام ، وتتسلم منهم المعلومات التى كانوا يلتقطونها من أفواه الحراس الثرثارين ! وفي ذات مرة هددها حارس شكاك بالحربة ، فجرها من ضفيرتها الى الخارج بعنف : ولكن الشريط الذى كان يربط الضفيرة باحكام قد ثبت في مكانه منطويا على تقرير من أحد السجناء !

وفي أيلول ١٩٤٤ كان الامريكيون المتقدمون يقصفون مانيلا ، فيدمرون مواقع الدفاع التى زودتهم بها جوى . فنشطت الشرطة اليابانية المقاومة للجاسوسية ، وبثت عيونها في كل مكان ؛ فقبض على العديد من أفراد المقاومة ، فعذب من عذب ، وقتل من قتل .

وفي هذا الوقت ، كان مكتب استخبارات الحلفاء هو الذى يتولى توجيه عمليات المقاومة السرية . وكان من بين العاملين فيه الكابتن مانويل كوليكو ، الاستاذ بجامعة سانتو توماس سابقا . وعلى أثر نداء هاتفي سرّى ، تم

اللقاء بينه وبين جوى · وسألها :

ـ هل تقبلين الالتحاق بمكتبنا ؟ أنا أعلم ان هذا قد يعنى التفريط في حياتك ، ولكن ···
ـ ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟

فأخبرها بأن عليها أن تنتظر حافلة باحدى ضواحى المدينة ، في وقت معين ؛ وأن تخفى في تجويف داخل حذائها الخشبي أوراقا تتضمن معلومات حصلت عليها المقاومة ، حول الاستعدادات اليابانية للدفاع عن مانيلا ·

وحملتها تلك الحافلة خمسين ميلا في طرق وعرة خلفية حتى جبل ناكسكارلان · ومن هناك اقتادهم مرشد في طريق ضيق حتى بلغوا صخرة في وسطه · وجاءهم صوت من مكان مجهول يسأل عن هويتهم ؛ فذكرت جوى كلمة السر · فانبثق من شجرة فوقهم ضوء قوى ثم اختفى · هنالك دحرج المرشد الصخرة الى جانب ، وتقدمت الحافلة حتى بلغت فسحة فيها ثكنات من أوراق الشجر ، يقيم فيها حوالى المائة من رجال المقاومة · ووقفت جوى تتفرج عليهم ، وهم يعدون جهازا لاسلكيا ، فيرسلون المعلومات التى اوصلتها اليهم ·

وهكذا صارت ساعية ، تسلك الطرق المختلفة ، لتحمل الى مكمن رجال المقاومة ، التقارير والخرائط والتصاوير · وفي هذا المكمن ، سمعت لأول مرة ، أن الامريكيين ينزلون في ليوزون ·

وطفق رجال المقاومة يطبعون النشرات ـ يطلبون فيها المساعدة ، ويبشّرون بقرب التحرير . وراحت جوى تهبط بهذه النشرات الى مانيلا . فاذا جنّ الليل ، انضمّت الى متطوعات أخريات ؛ فرحن يدسسن تلك النشرات تحت الابواب ، أو في أيدى المارين .

وفي ذات ليلة سمعت اشارة معيّنة لدى الباب ؛ فأدخلت رجلا في بدلة عسكرية يابانية ! ودفع اليها هذا الرجل كيسا من الفواكه ، ثم قال هامسا : هذا شيء للدكتور كيريرو . وتسلّم منها زوجها ـ وكان من رجال المقاومة ـ ذلك الكيس دون أن يفوه بشيء . ومن بعد ذلك ، تتابعت الليالى التى كانت فيها أكداس العتاد اليابانية ، ترعد بالانفجارات . وفي النهار كانت مهمة جوى ، البحث عن أكداس يابانية جديدة ، لتطعّمها بتلك الفواكه !

وبعد فترة قصيرة ، طلب اليها كوليكو أن تعمل ساعية كرة أخرى ؛ فانطلقت الى الجبل . وكانت تأمل أن يساعد الجو هناك على تجديد قواها ؛ ولكن قلة الطعام والدواء ، زادتها رَهَقا وداء . ثم لازمها الصداع ، وتورمت قدماها، وتفشّت القروح في جسمها ؛ فجعلت تصلّي من أجل الشفاء والتحرير .

وفي أوائل ١٩٤٥ كان الامريكيون يقتربون من مانيلا؛ فاستدعى كوليكو « جوى » لكى تقوم بأخطر مهمة قامت بها على الاطلاق . لقد أرسلت المقاومة الى الجيش الامريكى خارطة تبين مواقع الدفاعات اليابانية ؛ وفي تلك الخارطة

تظهر مساحة شاسعة خالية من الألغام • فقرر الامريكيون وضع الخطط للقيام بهجوم من تلك الناحية ؛ ولكن اليابانيين زادوا في نشر الألغام بشكل مكثف في جميع أنحاء المنطقة • وعلى ذلك فان المقاومة تحتاج الى شخص ليحمل خارطة مصحّحة الىمقر الفرقة السابعةوالثلاثين في كالمبت الواقعة على بعد أربعين ميلا الى الشمال من مانيلا • وكانت هناك معارك تدور على طول هذا الطريق ؛ واليابانيون يحرسون كل سبيل عريض لوسائل النقل ، وكل درب ضيق للسير على الأقدام • ولكن من المحتمل لفتاة صغيرة الحجم، رثة الهيئة ، عظيمة الجرأة ، تسعى على قدميها ••• من المحتمل لمثل هذه الفتاة أن تفلح في المحاولة • فسأل كوليكو:

ـ هل تقومين بهذه المهمة ياجوى ؟

ـ قل لي فقط أين أذهب ؟!

وسارت أولا آناء الليل ، تحت جنح الظلام ؛ ولكن فقدان النوم زاد في ضعفها ، وشدّد صداعها ؛ فحاولت السير أطراف النهار • وفي اليوم الأول أوقفها ضابط يابانى ، فاقترب كأنه يريد تفتيشها • فشعرت جوي بالخارطة المخفية بين لوحي كتفيها كأنها تلتهب اِلتهابا ! وتغرس الضابط في وجهها فرآه منتفخا تملؤه بقع حمراء ، فاستولى عليه الذعر مخافة المرض الخبيث ، فأزاحها من أمامه • فأدركت جوى بغتة ، انها تحمل جوازا فظيعا للمرور دون أن تدري !

وبعد مسيرة يومين كاملين وصلت الىمقر الفرقةالأمريكية، فسلمت الخارطة • ولكنها لم تستطع من أثر المرض والاعياء

والقلق ، أن تصيب شيئا من (الكيك) والقهوة اللذين قدما لها ، مع أنها لم تذقهما منذ سنين ! وفي طريق العودة وجدت نفسها وسط معركة شديدة ؛ فاختبأت وراء دبابة أمريكية، ولكن هذه انفجرت وكادت تقتلها . وأخيرا وصلت مانيلا محطّمة ، لتتلقى النبأ الفاجع : أن كوليكو قد أصيب بجراح خطيرة ، في خلال الأيام الأخيرة من تلك المعركة . فأسرعت الى المستشفى ، فوجدته يلفظ أنفاسه الأخيرة . وكل ما استطاع أن يقوله تحية لها : لقد أتيت عملا رائعا !

وتحولت جوي الى التمريض في أحد المستشفيات . ولكن مرضها الذى زاده الارهاق شدة ، قد بلغ درجة من الخطورة بحيث طلب اليها المشرفون على المستشفى أن تذهب الى (تالا) — مصح الحكومة الفيلبينية للمجذومين . ووجدت جوى هذا المصحّ مجموعة من الأكواخ المتهرّية الناضحة في وسط برّية ! كان فيه القليل من الطعام ؛ أما العناية الطبية فمفقودة . وكان العديد من المرضى ينامون على الأرض التى يدوسونها بأقدامهم المتقرّحة . وجماع القول أن هذا المكان لم يكن مصحّا ، بل مزبلة لعظام الموتى !

وفي شباط ١٩٤٧ اِنهال على المصح ستمائة مريض جديد ؛ فلم تعد جوى تطيق الوضع . فراحت تحاول أن تقر في المكان النظام ، وأن تدخل اليه الوسائل الصحية ؛ فتوجهت بطلب المساعدة الى أورورا كيزون ابنة الرئيس السابق للفيليبين ؛ وظهر في احدى صحف مانيلا عرض لأوضاع المصح السيئة ، فأتى ذلك كله بنتائج حسنة : بنايات جديدة ، مختبر ، غرفة للعمليات ، المزيد من الأطباء

والممرضات ، وفوق ذلك أدويـة حديثـة بعثت الأمـل في نفوس المرضى ·

ثم جاء دورها في معـالجة نفسها : فأدخلتها الحكومة الامريكيـة مستشفى كارفيل في لويزيانا ، وتلقاهـا نزلاء المستشفى بباقات الزهور وكعكة عيد الميلاد · كانت آنئذ امرأة صغيرة الحجم ، ذات وجـه أسمر ، شـاحب مملوء بالندبات ؛ ولكن عينيها تشعان الحياة والابتسام ·

وتولى علاجهـا الطبيب الشـهير فردريك جوهـانسن بأحدث ماإكتشف في هذا المجال ؛ فاستردت العافية ، وعاد الى وجهها صفاؤه واشراقه ·

وتوافد عليها الزوار من شتى طبقات المجتمع ، فكانت تستقبلهم بالبشاشة والحرارة ، وتقول : إن قلبـي مفعـم بالسعادة · بيد ان أسعد لحظاتها في هذا المستشفى هى التى وقف فيها الاطباء أمام سريرها ، وهم يقولون لها :

ـ جوى ··· إنك الآن تستطيعين أن تعودى الى الوطن، وأن تحتضني طفلتك !

وعادت جوى الى الوطن لتخوض حربـا جديـدة ضـد الجذام ؛ ولتدخل البهجـة في نفوس المرضى بـه ، وتحيطهم بالعناية والرأفة ·

مطاردة في شوارع أنقرة

كان ل. س. مويزيش ملحقا بالسفارة الألمانية في أنقره، حين اتصل به « شيشرون » فعرض عليه أن يبيعه وثائق سرية هامة من السفارة البريطانية . و « شيشرون » هو الاسم المستعار الذى أطلقه الألمان على من يُزعم أنه وصيف للسفير البريطاني . وما من أحد يعرف إسمه الحقيقي ، أو الجنسية التى يحملها ؛ أما هو نفسه ، فيدعي أنه ألباني يكره البريطانيين . ولكن كيف توصل شيشرون الى الوثائق التى باعها للألمان ؟ هذا لغز لما يزل مُكفّناً بالغموض . ومن الطبيعي أن رواية مويزيش للعملية انما تعكس الموقف الالماني ؛ وقد تكون بعض الوقائع التى ذكرها أو كلها صحيحة ، ولكنها من الضرورى حتي الآن أن تؤيد عن طريق إطلاق وثائق الحلفاء المتعلقة بها .

وقعت أحداث هذه القضية ، في الفترة ما بين تشرين الأول ١٩٤٣ ونيسان ١٩٤٤ . ومما لا مرية فيه ، أن الوثائق المسروقة ، أو بالأحرى صور تلك الوثائق ، قد كانت بالغة الأهمية بالقياس الى الألمان ؛ ذلك لأنهم دفعوا الى شيشرون لقاءها مبلغ ثلاثمائة ألف پاون ! بيد أن هذا الكرم لم يكلف الألمان كثيرا ؛ فقد تبين فيما بعد أن أغلب تلك الپاونات الأنيقة الجديدة ، لم تكن سوى أوراق مطبوعة في ألمانيا !

وفيما يلي نقتطف فقرات من كتاب « عملية شيشرون » الذى وضعه الملحق الألماني مويزيش نفسه :

كان شهر كانون الأول الفترة العظيمة لشيشرون · فهو لم يقدم من قبل ، ولم يقدم من بعد ، مثل هذه المادة الغزيرة الهامة · ولم يعد هنـاك أدنى شك في إخلاصه في تقـديم المعلومت الصحيحة ·

وفي برلين بدأوا أخيرا يرون قيمـة هـذه المعلومات ؛ وكانت كل طائرة بريد تحط هناك ، تحمل اليهم المزيد من الوثائق البريطانية البالغة السرّيّة · وقـد بلغ من أهمية هذه الوثائق ، وإنشغال الجهات العليا بهـا ، أن غطت على الحـرب الخـاصة المستعرة بـين ريبنتروب وكالتنبرونر ، وجعلتها في المكان الثاني · ولم يتغير موقف ريبنتروب وزير الخارجية من عملية شيشرون ، وبقي يحتفظ إزاءها بصمته المترفّـع · لقد كان يقرأ الوثائق ، فلا يفعل أكثر من ذلك · ويظن أنه كان مايزال يشك فيما اذا لم تكن المسألة كلهـا أحبولة بريطانية ! ومهما يكن من أمر ، فانه لم يبـذل أي جهد لاستخدام هذه المعلومات التى صارت بحوزته ·

أما بالنسبة لشيشرون ، فقد بدا رجلا مختلفا في خلال ذلك الشهر المفعم بالعمل · لقد أصبح لطيفا ودوذا تماما ، وثرثارا الى حد مـا ؛ وظهر عليـه أنه قد تغلب على خجله وتحفظه · ولم يعد يطبق فمه الا حين أسأله عن شخصيته أو ماضيه ؛ موضحا أن هذه الأمور ليست من شأني ، وأنه من الأفضـل أن أكتفي « بالبضاعـة » التى أتسلمها ، دون أن أطلب أية معلومات أخرى ·

وكان واضحا أنه فخور جدا بنجاحه · وكان الموضوع الذى يحب أن يتكلم فيه أثناء لقاءاتنا الليلية ، هو مستقبله ·

كان يستمتع بالتفكير في ذلك المنزل الواسع الذى سيمتلكه في بلد ناءٍ بهيج • وأتذكر أنه كان يعتزم ان يحيط نفسه بالخدم والحشم ؛ وراحت نزعته تذكرني أحيانا ببهجة الطفل وانفعاله عشية عيد الميلاد • ولم يكن يبدو عليه مطلقا ، أنه قلق من تدهور وضع ألمانيا السريع • قال لي مرة بطريقته المتكبّرة : لقد وضعت الخطط لكل أمر منتظر ••• فأنا أعرف بدقة ماذا سأفعل ، اذا ماخسرت ألمانيا الحرب • ولكنه لم يقل لي ماذا كانت تلك الخطط •

وتغير مظهره كذلك • لقد صار الآن يرتدي البدلات الأنيقة من القماش الانكليزي الفاخر ، ويلبس الأحذية الغالية • وحين جاءني ذات يوم ، وهو يضع على معصمه ساعة ذهبية جذابة ، رأيت أن قد آن الأوان لأن أكلّمه في هذا الموضوع • قلت له :

ــ أما تظن أن رئيسك أو الآخرين قد يلاحظون مقتنياتك الجديدة الثمينة ؟ وقد يتساءلون من أين جاءت النقود التى اشتريتها بها ؟ إني ، بصراحة ، أعتقد أنك مندفع قليلا ؛ وفي الواقع ، إن تصرفك هذا يبدو لي في أشد الخطورة •

وتطلع الي شيشرون وهو غارق في التفكير ؛ واستطعت أن ألحظ أنه قد تأثر بقولي • وبعد لحظات نزع الساعة ، فطلب اليّ أن أحفظها له حتى تتاح له الفرصة ليأخذها الى إسطنبول ، فيخزنها هناك مع جواهره الأخرى • لقد كان له ولع شديد بالجواهر ؛ وفي ذات مرة طلب اليّ أن أدفع له الخمسة عشر ألف پاون المعتادة ، ليس بشكل أوراق نقدية

إنكليزية ، بل بصورة ماسات وأحجار ثمينة أخرى ! وقال إنه يخشى ان يثير الشبهة اذا ما اشتراها هو نفسه · فقلت له أن الأمر سيبدو مشبوها كذلك ، اذا أنا ذهبت الى أحد الأماكن ، فاشتريت ماسا بمثل هذا المبلغ · ولكني وافقت أخيرا ان أشتري له ماسا بمبلغ ألفي باون . وشعرت بأن هذا هو المبلغ الذى أستطيع أن أزعم بأمان أنه ثمن هدية لزوجتي ·

والتغير الآخر الذى طرأ على مظهره هو أظافره · لقد كانت هذه حين قابلته لأول مرة ، قصيرة تكاد تغوص في طرف إصبعه · أما الآن ، فقد طالت وبرزت ، بل ترك عليها مقلم الأظافر بصماته ! ولم تكن هذه الامارة الوحيدة على أنه قد برأ من (نرفزته) السابقة ، فلقد أقلع عن إستراق النظر وراء السجف المسدلة ، وتحريك الأبواب المفتوحة · إنه الآن مطمئن كل الاطمئنان ، حتى أننى صرت أخشى أن يُسْلمه ذلك الي الطيش ·

وبعد وقت قصير من إنتهاء مؤتمري الحلفاء في القاهرة وطهران ، إتصل بي شيشرون فطلب أن نلتقي · وكان علي في ذلك المساء أن أحضر حفلة عشاء رسمية ، لا أستطيع أن أعتذر عن حضورها في تلك الفترة القصيرة ، فطلبت اليه أن يوافيني في وقت مبكر قليلا · وفي الساعة الثامنة كنت في مكان اللقاء المقرر : فقفز الى داخل سيارتي المبطئة ، بسرعة القط الغريبة · وبدا أنه مثلي على عجلة من أمره · وسلمت اليه حزمة كبيرة من النقود فحشرها في جيبه ، بينما راح يناولني بدوره لفتين من الأفلام · وقال إنه سوف يزودني

بالمزيد في خلال أيام قليلة · وفي الزاوية المظلمة التالية ، ؛نسل الى الخارج يمثل الهدوء الذى إنسل به الى الداخل ·

ولم أشأ أن أتأخر أكثر مما هو ضروري عن حفلة العشاء ، فتوجهت اليها مباشرة ، بدلا من إيداع الافلام في السفارة أو لا · ولم يكن العشاء بهيجا ، بالقياس الي على الأقل · ولم أستطع أن أكفّ عن مد يدي الى جيبي كل دقيقتين ، لأستيقن من أن الأفلام في مكانها · وأخشى أن قلقي حول هذه الأفلام ، ورغبتي في الاطلاع على محتواها بأقصى سرعة ، قد جعلا مني محدثا رديئا ؛ وأني لأعلم أن لعبي للبريج بعيد العشاء كان مما يُرثى له · وحين اختلقت بلطف عذرا للانصراف ، أخذت زوجتي الى البيت ، ثم أبت الى السفارة · لقد كانت نيتي أن أحفظ الافلام في الخزانة ، وأن أتولى أمرها في الصباح · ولكن حين إنطوت عليها يدي، طغى عليّ حب الاستطلاع ، فقررت أن أجرى ما ينبغي لاظهار ما في الافلام على الفور ·

ورحت أعمل في الغرفة المظلمة طوال الليل ، وإنتهيت وطلوع الفجر · وعندئذ وجدت بين يدي التفاصيل الكاملة لما جرى في مؤتمري القاهرة وطهران · ثم قضيت فترة الصباح في كتابة تقرير موقت ليبعث به السفير الى برلين · وجاءت العجوز الطيبة شنيرشن الى مكتبي في التاسعة تماما ؛ ومن المحتمل أنها قد دهشت إذ رأت رئيسها في ملابس السهرة ، يضرب على الآلة الكاتبة ! ولكن تدريبها الدبلوماسى المتقن حال دون ابدائها اي تعليق على ملابسي ، كما أنها لم تسألني لماذا أضرب على الآلة الكاتبة بنفسي ، ولم أنتظر حتى أملي عليها ·

وبتسلم هذه الدفعة من المعلومات ، يكون مجرى الحوادث ونتائجها في سياسة الحلفاء ، التى استعرضت في ثلاثة اجتماعات حديثة ، قد أصبحت لدينا واضحة كل الوضوح : هناك مؤتمر موسكو الذى دعا اليه ستالين وحضره إيدن وكوردل هل ، ثم محادثات القاهرة بين روزفلت وچرچل وشيان كاي‌شك ، وأخيرا مؤتمر طهران العظيم الذى حضره الثلاثة الكبار ·

وأدركت وأنا جالس طوال فترة الصباح ، أطبع خلاصة ماتخبرني به هذه التصاوير الماثلة أمامي ··· أدركت بكل وضوح قاس إني لم أكن أكتب سوى نبوءة بدمار ألمانيا : قام مؤتمر موسكو بالعمل التحضيرى ··· ووضع مؤتمر طهران اللمسات الأخيرة · هنا خطط لعام جديد مقدمته محو الرايخ الثالث من الوجود ، ومعاقبة زعمائه المجرمين ! ولست أدري ماذا كان تأثير هذه النبوءة على أولئك الذين تقرر مصيرهم الشخصي في طهران ؟! أما أنا ، فقد جعلت أرتعد بانفعال من مشهد هذه الصورة التاريخية البعيدة الواسعة التى ترسمها هذه الوثائق المسروقة !

وقضيت سحابة النهار في عمل دائب ، أسوّد فيه رسائل أخرى مطولة بالشفرة ، يجب أن تحظى كل منها بمصادقة السفير · وفي المساء إلتقيت شيشرون كرة أخرى ، فدفع الي فلما جديدا · كان يحتوى على صور قليلة ، ولكن إحداها كانت بالغة الأهمية · فأبرقنا الى برلين على الفور أن رئيس الدولة التركية قد توجه الى القاهرة للقاء الرئيس روزفلت ورئيس الوزراء چرچل · وحتى تلك اللحظة ، لم يكن أي

منا في تركيا ، وأي واحد في برلين بالتأكيد ، قد درى أو شك في أن عصمت إينونو ووزير الخارجية التركي قد غادرا انقرة !

وأصبح شيشرون أقل حذرا ، وأكثر اندفاعا ؛ يقدم كل يومين أو ثلاثة مادة جديدة . فأعطيته أداة تصوير حديثة النوع من علامة (لايكا) أرسلت من برلين ؛ وكذلك جميع مايحتاج اليه من الأفلام التى أرسلت أيضا من هناك ؛ لأن شراءه مثل هذه الكميات من محلات المصورين في أنقره قد يلفت النظر ، ويثير الشبهة .

كنا مانزال في الأسبوع الثاني من كانون الأول ، حين انصل بي شيشرون هاتفيا طالبا أن ألتقيه في تلك الليلة . ورحنا ندور بالسيارة على غير هدى ، في شوارع أنقره وأزقتها المظلمة ؛ بينما سلّم الي من الخلف فلما ، فناولته اجرته . وكان مع الفلم في هذه المرة رزمة صغيرة . قال :

ـ إفتحها فيما بعد ... انهم سيعرفون ماذا يصنعون بها في برلين !

وتساءلت ماذا تحتوي ، وكدت أسأله عن ذلك حين إنعكس وهج أضوية سيارة أخرى في مرآة الرؤية الخلفية . إنحنيت الى الخارج فرأيت سيارة (ليموزين) طويلة ،قاتمة، على بعد حوالي عشرين ياردا خلفنا . وأتذكر أني قد هنأت نفسي لأني قد أجريت مايلزم للوحة سيارتي الخلفية ـكانت منحنية ، ومغطاة بطبقة من الطين اليابس . وكذلك لم يكن من السهل ليلا ، إكتشاف الاصل الألماني لسيارتي (الاوپل) .

ومن نظرة عارضة ، تبين أن تلك السيارة الضخمة ، تبدو كواحدة من السيارات الأمريكية الشائعة في أنقرة ·

وتقدمت ببطء منتظرا أن تجتازني السيارة الأخرى ، فلم تفعل ؛ فقررت أن أقف عند المنحنى ريثما تذهب ، ولكنها توقفت أيضا ، وعلى نفس البعد السابق تقريبا · فبدأت الآن أقلق حقا · وأنارت أضوية السيارة الأخرى القوية داخل سيارتي · ومن الواضح أن شيشرون كان ما يزال غير عالم بما يجري من حوله ؛ ولكنه انزعج من الضوء الباهر فقط ، ولذا فقد سحب ستار النافذة الخلفية · وفي تلك اللحظة سمعت بوق السيارة الأخرى ، ورأيت في المرآة أنها تزحف ببطء نحونا ·

وإنتابني رعب عظيم ، فسقت بالسرعة التى أستطيع ، ثم رحت أزيدها شيئا فشيئا ، محاولا أن أتملص من تلك السيارة · ولكني أدركت بعد قليل أنها تجري بنفس سرعتي على الأقل · ولم يكن بوسعي أن أنطلق بأقصى سرعة ، مخافة أن أدهس أحد المارة ، أو اصطدم بشيء ما · إن حادثا كهذا يقع في مثل هذا الوقت ، ستكون له نتائج مهلكة · فلو أننا قد قتلنا ، أو حتى لو جرحنا جراحا خطيرة ، فان الشرطة التركية ستجد وصيف السفير البريطاني يحمل مبلغا ضخما ، في سيارة تعود الى الملحق الالماني ، وهذا يحمل لفة فلم!··· هذا إذا تركهم مطاردونا يعثرون علينا !

وظل الليموزين القاتم يجري ورائي ، على البعد نفسه دائما · فقللت السرعة ثانية حتى صارت زحفا ، ففعلت

السيارة الأخرى مافعلت ! فلم يبق شك لدي في أن هناك من تعقب شيشرون ، ولربما منذ أن غادر السفارة البريطانية. وهذا يعني أن الذين وراءنا يعرفون أن الوصيف في سيارة دبلوماسية ألمانية ! وتعمدت أن أطرد هذه الأفكار ، فما ينبغي لي أن استسلم لها من قبل أن أقوم بمحاولة أخيرة للتخلص من هؤلاء .

دخلت زقاقا ضيقا جدا ، مظلما للغاية ... درت حول زاويته بشيء من البطء ، ثم أسرعت بغتة بقدر ما أستطيع ، ثم مرقت حول زاوية أخرى ، ثم ثالثة ، فلم ينفع ذلك شيئا ... ها هي المرآة ماتزال تعكس السيارة القاتمة ، وعلى بعد عشرين ياردا أيضا !

فماذا كان بوسعي أن أفعل ؟ لو كان الوقت نهارا فلربما كنت أحاول أن أندفع نحو السفارة الألمانية . ولكن في الليل ، لا بد للبواب من دقيقة أو دقيقتين على الأقل ، ليفتح الباب الحديدي الثقيل ... وحتى لو فتح الباب ، فالدخول الى هناك ، يزود متعقّبينا بالدليل القاطع على أن شيشرون جاسوس ألماني ! إنّ عليّ أن أفكر في شيء آخر .

وبينا كنت أدور حول تلك الزوايا ، لمحت صورة شيشرون في المرآة ... كان متجمّعا منحنيا ، في ركنه ، وعليه بياض الموتى ! لقد أدرك إذ ذاك أن حياته في خطر . وصبّ عليه النور لحظة ، شعاع قادم من السيارة الخلفية ، فاستطعت أن أراه غارقا في العرق . وهمس في صوت أبحّ :

ـ ألا تستطيع أن تسرع أكثر من هذا ؟

ـ أجل ... ولكنه لن يفيد شيئا !

وخطر لي أن أجرب الوصول الى أحد الطرق العريضة الجديدة ، التى تخرج من أنقرة لتمتد في السهول • ففى أحد هذه الطرق ، أستطيع أن أندفع بأقصى سرعة ، وقد اتخلص من الليموزين • ولكنى فطنت فورا الى ان هذه المحاولة عديمة الجدوى ؛ ذلك أن هذه الطرق رائعة حقا ، ولكنها تمتد الى أمام ، ولا تستدير الى أية جهة • وكل من يتخذ واحدا منها عليه أن يعود من نفس الطريق • وفي هذه الحالة ليس على البريطانيين – اذا كانوا هم الذين خلفي – أن يطاردوني ، فانهم يستطيعون بكل بساطة أن ينتظروا عودتي !

ولم أكن أحمل مسدسا ؛ بل اني لم أحمل واحدا طيلة وجودى في أنقرة • إذ يبدو لي ألاّ فائدة تجنى من ذلك ، مادمت بالتأكيد لن أطلق الطلقة الأولى؛ أما الطلقة الثانية فانها ستكون بعد فوات الأوان • والى ذلك ، كنت أرى دائما أن حمل مسدس محشو هو أخطر مما يستحق ، لأنه يجعلك تشعر شعورا باطلا بالأمن • انه من الافضل دائما ، أن يعوّل المرء على دماغه ، فهذا سلاح أنفع بكثير • بيد أن شيشرون كان يحمل مسدسا ؛ وكان واضحا عليه في هذا الوقت أن الذعر قد أطبق على كيانه ؛ وقد جلس منكمشا يقضم أظافره • وكان ظني ان وجود مسدس محشو في جيبه، انما هو خطر على كل من يعنيه الأمر ؛ وتمنيت في تلك اللحظة لو أستطيع بشكل ما أن أنتزع المسدس من جيبه •

وعدت الى حيلتي القديمة – عبرت تقاطع الطريق ببطء، فابطأت السيارة التى خلفى كذلك ، ثم أسرعت حول زاوية،

ثم حول ثانية ، ثم حول ثالثة ٠٠ كنت أمس ّ كل زاوية مسا سريعا ، ثم أقفز الى التــى تليهــا ٠ وشعرت كأن السيارة تتزحلق على عجلتين فقط ؛ وكانت تصرّ صريرا عند كــل استدارة ٠ وحين بلغت الطــريق المســتقيم ، سيطرت علــى السيارة ثانية ٠ وبعد قليل درت حــول زاويتين جديدتين ، فوجدتنى في النهاية في طريق أنقره المركزى العظيم ، حيث رحت أزيد السرعة من ستين الى سبعين الى خمس وسبعين ٠ واذ نظرت حــولى ، شعرت بارتياح كبير ، فلــم يكن أحــد ورائي ! ولكن قدمي ظلت تضغط على عتلــة الوقود ، حتى أطبقتها على قاع السيارة ٠ ومن حسن الحظ ، أن الشارع الكثير التقاطع ، كان في هذا الوقت من الليل خاليا تماما ٠

ومررنا من أمام الباب الحديدى الضخم للسفارة الالمانية، فاذا صوت ضعيف يأتيني من المقعد الخلفي : خذنــي الــى السفارة البريطانية ٠

خـــائن آرنهـم

لقد كان الشغل الشاغل للعقيد پنتو ، هـو اصطياد الجواسيس • كان رئيسا للاستخبارات الهولندية ، في الحرب العالمية الماضية ، فاستمتع باصطياد كومة كبيرة من عمـلاء النازيين ، فيهم الكبار ، وفيهم الصغار •

وما من شك في أن أعظم صيد ظفر به ، هـو لندمَنْس آرنهم • كان هذا خارق القوة ، ضخم الجسم ، فأطلق عليـه رجال المقاومة لقب « كنك كونك » • وكارثة آرنهم التى هى نتيجة خيانة هذا الرجل ، قد هلك فيهـا الآلاف من جنـود الحلفاء ، وكانت من أفظع أعمـال الابادة التى يقوم بهـا جاسوس واحد !

ومع ذلك ، لم يمثل لندمَنْس أمـام فرقـة الاعدام ؛ لأسباب لما تزل محاطة بالابهام • ومما قيل في تبرير ذلك ، أنه كان حين القبض عليه يُعد من الأبطال ؛ فما كان بالامكان اعدامه دون أن يثير ذلك هياجا عظيما في هولندا خاصة ، وفي أوساط الحلفاء عامة • والغريب أنه مع اعترافه بخيانته ، فقد جرت عدة محاولات لرد اعتباره ، وتبرئة ساحته ؛ حتى كارثة آرنهم نفسها ، وجدت من يخفّف من وطأتها ، بزعـم أن لندمنس لم يعط للألمان تفاصيل مـكان الانزال بشـكل دقيق ، مع أن المعلومات التى أفشاها كانت كافية لاستنتاج ذلك المكان •

ويقول العقيد پنتو أن العالم لمّا يعرف مدى خيـانة لندمنس ، التى كان من جرائها أن أبيد سبعة آلاف من خيرة

الشبان الشجعان · وهو يروى لنا في كتابه « صيّاد الجواسيس » كيف استطاع في هدى لقانته ، أن يستدرج نندمنس خطوة خطوة الى داخل شبكته · والفصل التالي يلخص كيف قُبض على هذا الخائن :

لا شك في ان التقرير الذى رفعته ، قد حفظ في مكان ما من ذلك المقر الفسيح · ذلك ان فرع الاستخبارات لديه الكثير من المشاكل المختلفة ، وما تقريرى سوى واحدة منها ·

ومهما يكن من شيء ، لقد كان من المحتمل أن ينبذ الضباط الكبار شكوكى باعتبار أنها وهمية · فان اتهام زعيم مشهور من زعماء المقاومة بالخيانة ليس مرفوضا فقط ، بل هو ينم عن ذوق مشبوه حقا !

ومثل هذه التهمة ، من السهل أن يكون لها أصداء سياسية ودبلوماسية خطيرة ؛ وما من عسكرى حصيف يحب ان يقحم نفسه في غمرة هذا التيار ، وهو يخوض أعظم حرب عرفتها البشرية · وهو حتى اذا اقتنع بجدية التهم المنسوبة، فان كل غرائزه توحى اليه بأن ينبذ هذه المشكلة الكريهة !

وقد أهمل تقريرى بالفعل ·

فصرت كلما التقيت مثيلى في الاستخبارات البريطانية ، المرتبط بالمقر الذى ارتبط به نفسه ، وخزته بموضوع لندمنس · وكان يرد ردّا ينطوى على المجاملة ، بيد أنى كنت أرى أنه غير مقتنع باستنتاجاتى · فجعلت أقول في نفسى اذا كان هذا الرجل المتمرس في مثل هذه الشؤون لايثق بما أزعم،

فكيف يثق به الضباط الذين لا يفارقون كراسيهم ؟ هذا فضلا عن انهم غارقون في المشاكل الملحّة التى تتطلب الحل العاجل ٠

وهكذا انصرمت ستة أسابيع ، وجهودى للقبض على هذا الرجل لا تثمر شيئا ٠ وفي ذات مساء ظهر دليل جديد بشكل منير ! وكان دليلا قاطعا طغى على مجرد الظروف المدعمة بالاستنتاجات ٠

كنت آنئذ في آيند هوڤن التى احتلها الحلفاء حديثا ، وانا على وشك ان انهى تحقيقا استمر قرابة ثلاث ساعات ٠ ولم يكن لدى في ذلك الوقت مساعدون ، ولا واسطة للتنقّل ـ كنت أعمل وحيدا ـ فأنا المحقق ، وأنا القاضي ، وأنا السجّان ٠

وكان المشبوه الماثل بين يدى شابا هولنديا يدعى كورنيلس ڤيرلوپ ٠ وبعد جهد مضن أفلحت في النهاية في استدراجه للاعتراف بأنه جاسوس ٠ واستولى عليه الذعر ، حتى لم يُبق لديه سوى قدرة ضئيلة على التفكير ٠

وانتصبت فوقه ؛ وجعلت أتمطّى ، وأنفض رماد لفافة التبغ من على بزّتي ٠ أما هو ، فقد كان يرقبني عن كثب ٠ وأخيرا استطاع أن يجمع صوته ، فقال كالهمس :

ـ هل سأعدم رميا بالرصاص ؟

هززت كتفي دون ان أجيب ؛ ذلك أن اعدامه لا مرية فيه ٠ قال :

ـ سيدي ··· إن لي زوجة شابة في امستردام ···
فتاة هولندية طيبة · إنها بريئة ، وأقسم على ذلك ·

ـ ماذا تقصد ؟ إننا لن نعدم زوجتك ··· فنحن لسنا مثل سادتك الالمان ·

وحاول يائسا ان يسلك سبيلا آخر ، فقال :

ـ سيدى ، سأقدم اليك معلومات هامة في مقابل حياتي·

ـ يا لك من أحمق ··· إننا نستطيع قبل إعدامك أن ننتزع أية معلومات لديك ·

فارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة ، وقال :

ـ أجل ··· إنك تستطيع ان تنتزع منّي ما تعتقد أني أعرفه ··· ولكنك لن تصل الى الحقائق التى لا تدرى أنت أنى أعرفها !

ـ حسنا أيها الفيلسوف ··· ماذا تعرف ؟

فانحنى الى الأمام ، وشبّك يديه ، وراح يعصرهما كأنه يستجمع ذاكرته · ثم نفض أسماء وأوصاف جميع رجال الاستخبارات في مقرنا العام ! وبعض هؤلاء لم يكن يعرفهم العديد من الضباط الذين يعملون في المقر نفسه !

ثم وجه الي ضربة مريعة أخرى ، فقال :

ـ وأعرف رئيس وكلائكم في بروكسل ، إنه پول ليڤن ···

وفي امستردام ، انه دمبرينى ··· وفي ···

وهكذا استمر يسرد بطلاقة تفاصيل شيكاتنا في كل من بلجيكا وهولندا !

فاستولى علي قلق هائل على اولئك الوكلاء الذين كانوا لا يزالون وراء الخطوط الالمانية • ورحت ألقى على نفسي هذا السؤال المريع: اذا كان هذا التافه يعرف هذا المقدار ••• فكم هو ما يعرفه سادته الالمان ؟

وسألته بلهجة هادئة ، عرضية ، بقدر ما استطيع :

ـ من أخبرك بهذا كله ؟

كان يقظا ، والأمل لا يزال يداعبه • فأجاب :

ـ الكولونيل كايزيوتر ••• أما من الذى أخبر الكولونيل ، فهذا هو سرّى ••• هل تريد ان تساومنى يا سيدى ؟

كنت الى هذه اللحظة مرهقا فقط ، أما الآن فقد صرت متقزّزا أيضا من هذا الانحطاط البشرى الماثل أمامي • لقد رأيت كثيرا من الرجال يكافحون من أجل حياتهم ؛ وهم ـ كالجرذان التى أُطبق عليها من كل جانب ـ مستعدون للتضحية بكل شىء لينجوا بجلودهم ؛ بيد أنى لم أستطع أن أستسيغ هذا النوع من المساومة الخسيسة •

كان على أن أذهب بڤيرلوپ ، سيرا على الأقدام ، الى السجن العسكرى في الطرف الآخر من المدينة • وكانت الليلة مدلهمة ، حالكة السواد ؛ فلم أشأ ان أتيح لهذا الخائن الهرب • فسحبت مسدسي ، وأرسلت اليه نظرة نفّاذة ، ثم قلت :

ـ هيا يا ڤيرلوپ ، لقد شبعت من أحابيلك ••• فلن أدعك تضيف الى الخيانة التساوم عليهـا معي • إن قواعد هذه اللعبـة ، لم أضعها أنا ••• بـل وضعهـا أصحابك النازيون • فحسبنا أن نلعبها كما وضعوها •

قل لى : من أخبر الكولونيل بهذه المعلومات ؟

فتلاشت ابتسامته المتفائلة ، وقال بقنوط :

ـ لقاء حياتى ياسيدى •••

فصحت به : إنهض •

وكنت أتوقع أن ليلـة من التفكير المؤرق في السجن ، سوف تعيد اليه حواسه • بيد أن ڤيرلوپ ـ على الرغم من ذكائه ـ قد أساء فهمي ، فحسب أني على وشك أن أقتلـه • فقال لاهثا :

ـ إنتظر •• سوف أخبرك ، فلا تطلق النار !•••

إنه كِرسْ لندمَنْس ـ كنك‌كونك ! هو الذى أخبر الكولونيل بكل شىء •

وهكذا جاءت هنا ، وبشكل غير متوقع ، الحلقة الأخيرة المكمّلة لسلسلة أدلتي ضد لندمَنْس • إنحنيت الى الامام ، ووخزت ڤيرلوپ بفوهة مسدسي • فابيض وجهه من الفزع ، وبلع ريقه • وسألته :

ـ هل كان كنك‌كونك هـو الذى خان آرنهم لمصلحـة الألمـان ؟

فهز رأسه علامة الايجاب • ولم يستطع الكلام حتى بلّل شفتيه الجافتين بلسانه ، ثم خرجت الكلمات ترتعش :

ـ أجل ، هو الذى أخبر الكولونيل في الخامس عشر من أيلـول ، حين زار المقـر الألمانـي • وقال ان البريطانيين والامريكيين سوف ينزلون قواتهم •

ـ وهل ذكر المكان ؟

ـ قال اِن فرقـة بريطانية محمولـة ، تنتظر النزول صباح الأحد وراء آيندهوڤن •

فخفضت مسدسي ، ورحت أنظر اليـه وأنا غـارق في التفكير • لقد بدا من المؤكد ان هـذا الجبان التعس قـد نفض جملة ماعنده ، ووضع آخر جزء من اللغز في محله • وخاف من توقـّفي ، فهوى على ركبتيه وهو يقول :

ـ اِنك لن تطلق علي النار الآن •• أليس كذلك ؟

لقد أخبرتك بما أعرف •

ـ لن أطلق ، أنا ، عليك النار ؛ كما أني لا أستطيع أن أتكلم نيابـة عن الجيش ؛ اِن محكمـة عسكرية سوف تقرر مصيرك • والآن ، اِنهض لنذهب •

لقد علمتني سنوات التدريب على مقاومة التجسس ، أن اطلاق العنان للعواطف ، يمكن ان يكـون ضربا من الترف المدمّر • ولكني في هذه المرة ، لم أستطع أن أتمالك نفسي؛ لقد كنت أرتعد من الغضب ، فأسلمني ذلـك الى الصمت في حينه • فعلى الرغم من تحذيراتي المتكررة ، أرسل كنككونك في مهمات سرية الى مـاوراء خطوط العدو ، حيث يقدر أن يلحق أعظم الضرر بقضية الحلفاء • وفي السابق كنت في شك

من الامر ، أما الآن فاني أعرف جليته · وما من شيء يمكن أن يعوض مأساة آرنهم ، ولكن لنضع على الاقل نهاية سريعة لخيانة لندمَنْس ·

وبعد أن ألقيت ڤيرلوپ في زنزانته ، هرعت وأنا أتميز من الغيظ ، الى مقر الاستخبارات الهولندية · واندفعت الى مطعم الضباط مباشرة ، فقفز غيظي الى ذروته اذ رأيتهم مسترخين في مقاعدهم الوثيرة ، وبأيديهم كؤوس الراح ، وهم يشنفون أسماعهم بالموسيقى · وقفت أمامهم وأنا أبكم من الهياج · فتلفّت أحد معارفي حواليه ثم سأل :

ـ ما الخبر ياپنتو ؟ أن لونك كورقة بيضاء !

وفعل هذا السؤال فعله ، فراح غضبي يغلي ، فصرخت :

ـ أغلقوا هذا الراديو اللعين !

ثم خبطت على المنضدة بكل قوتي ، في حين ساد القاعة الصمت ، وأقبل الجميع ينظرون إلي في دهشة · وقد كرهت لفترة وجيزة ، تلك الافواه المفغورة ، والاوجه المبيضة الماثلة أمامي !

ثم زأرت :

ـ لتحل بنا لعنة الله ! ولقد آن الأوان أيها العصبة المناكيد أن تدركوا أني حين أشك في شخص ، فشكّي هو الحق · فماذا فعلتم أنتم ؟ أرسلتموه الى ماوراء خطوط العدو في أخطر مهمة حربية !

فتلعثم أحدهم متسائلا :

ـ ماذا تعني ؟

ـ لندمَنْس ٠٠ كنك كونك ٠٠٠ لينطلق إثنان منكم بالسيارة الى كاسل وتوك على الفور ، فيقبضا عليه !

ـ نقبض على لندمَنْس ؟ لا بد أنك قد جننت ! ثم ألا تدري أنه بمجرد يديه يستطيع أن يمزق رجلين وكأنهما دميتان من الخرق ؟! والى ذلك ، انه دائما مدجج بالسلاح . فلن تكون المحاولة سوى ضرب من الانتحار ٠

وتكلم أحد الضباط الكبار ، فقال :

ـ على كل حال ٠٠٠ ماهى حججك يا پنتو للقبض على لندمَنْس ؟ وهل تدرك الفضيحة العامة التى ستحدث ؟

وسردت حججي بسرعة ، ولا بد ان شيئا ما في سلوكي قد أظهر لهم صدقي واخلاصي ٠ ولكن مع ذلك بقيت مشكلة تنفيذ القبض دون التفريط في حياة أحد ٠ وكما يحدث أحيانا ، فقد جاءني الجواب وسط الهياج ،كما يجيء الالهام، وفي مثل وميض البرق ٠ فصرخت :

ـ لقيته ! أنت ٠٠٠ وأنت إذهبا الى كاسل وتوك فقابلا لندمَنْس ، وقولا له لقد تقرر ان تقلّد وساما على خدماتك النبيلة ٠ وسيلقى هذا الخبر هوى في نفسه ، وصدى في غروره ؛ ثم اقنعاه بأن يترك سلاحه ، ويرتدي قميصا أنيقا ويمشط شعره ؛ ثم خذاه الى غرفة خاصة ٠ وسأكون أنا في نفس الوقت ، قد بعثت برسالة الى مقرنا العام ، كي

يرسلوا عشرة شرطة عسكريين الى كاسل وتوك ٠ وحين يدخل لندمَنْس الغرفة ، سوف ينقض عليه هؤلاء ،فيقبضون عليه ٠٠٠ هل فهمتما ؟

وكشّر الضابطان اللذان اِخترت ، ثم قفزا واقفين ، وقال أحدهما وهو يثبت حزام مسدسه :

ــ هذا كاف ٠٠٠ أحسب أن عشرة رجال سوف يوفونه حقه ! ولكن قل للمقر العام أن يرسل أضخم من عنده !

لقد كانت هذه هى الخطة ، وقد نجحت ٠ فكما توقعت ، لقد دغدغ الخبر غروره ، فما ان سمعه حتى أصبح كالحمل ، يفعل كل ما يقال له : ينزع السلاح ٠٠٠ ويتأنق ٠٠٠ ويسير الى الغرفة الخاصة ، فيجلس في ركن من أركانها! وأمامه « حرس الشرف » ! ثم جاءه الوسام في صورة عشرة رجال أشداء ، صنعوا من حوله ضربا من جدار ، فتحرك حركة أو حركتين ثم خمد بين أيديهم ! ولم يكن في هولندا كلها قيد يسع رسغيه ، فاستعيض عن ذلك بربط ذراعيه بحبل مبطن بأسلاك من الفولاذ ٠ وحين وصل الى مطار القوة الجوية الملكية في أنتورب ، أمرت بربط رجليه أيضا ٠ فلقد كان من المحتمل في نظري ، أن يفتح كنك كونك ثغرة في جدار الطائرة ، بمحض قوة قدميه الخارقتين ، ثم يلقى بنفسه وسط الجو ، ليضع لنهايته مشهدا رائعا ومريعا ، فيرضي غروره ، ويطمئن كبرياءه !

وما أن هبطت الطائرة لندن ، حتى هُرع بلندِمنْس الى منزل ريفي خاص خارج المدينة ٠ وكان في هذا المنزل

رجـال من مقاومـة التجسس ، بينهم محققون من المهـارة والخبرة ، بحيث يستطيعون استخلاص الاعترافات الكاملة ، بدون اللجوء الى التعذيب البدني ـ هم دهاة في تقييم القوة والضعف النفسيين للمشبوهين ، وفي تدمير جميع العقبات الذهنيـة التى تعترض ابداء الحقيقـة · وأطبقوا عليـه أسبوعين باستجوابهم الفظيع ؛ ثم أعيد بالطائرة الى هولندا ، وهو مقيد اليدين بقيد خاص يمكن تكييفه حسب الحاجة ، مما تملكه سكوتلنديارد خاصة · وقد اِقتدته بنفسي الـى زنزانتـه في سجن بريدا · ثـم أقبلت أتمعـّن فيه ـ ياالله ! ماذا فعل أولئك الأبالسة بهذا الغول حتى طار عنه خيلاؤه ، وماتت وحشيته ؟!··· لم يكن فيه رضّ ولا جرح ، كما لم يكن هناك من أثر حتى للابرة التى حقن بها · وكانت عيناه ذابلتين كسيرتين ، ولكنهمـا عاجزتان عـن ان تشيا بـأن صاحبهما قد سُلـّط عليه الفزع الأكبر ، وحيل بينـه وبين النوم الأيام الطوال ! ولكنهـم كانوا قد أبقوا على لسـانه نشطا ، ذلقا ، حتى أدلى لهـم باعتراف كامل طوله أربـع وعشرون صفحة كبيرة مطبوعة بالحرف الناعم !

وهكذا اِمتص هؤلاء الخبراء ، جميع مـا في رأسه من أسباب تجريمه ، دون أن يمسـّوا جسمه بسوء ·

وأخذت الاعتراف البالغ السريـّة الى مكتبي ، وقعدت أدرسه · كان أكثر اِثارة من القصص البوليسية ، ومصداقا للكثير من الظنون والاستنتاجات التى حامت حول صاحبه · وتبدأ قصة خيـانة الرجل في سنة ١٩٤٣ ، حين كان في أوج شهرته كزعيم مقاومة للقوات الداخلية الهولندية · ولقد

كان دائما بوهيميا ، مفرطا ، في شهواته الجنسية · فلما أعوزه المال لاغداق الهدايا الثمينة على فتياته العديدات ، لجأ الى وسيلة بارعة لتغذية خزينته · أقنع النساء المثريات اللواتي استعبدهن بجاذبيته الجسمية ، بأن يتبرعن بأحسن مجوهراتهن لتمويل « طريق الهرب » لرجال المقاومة عبر بلجيكا ، وهولندا ، وفرنسا المحتلة ، ومن هناك الى البرتغال · وكان لهؤلاء النسوة بالاضافة الى انجذابهنّ للرجل ، أصدقاء وأقرباء يتعذبون ويموتون في معسكرات الاعتقال النازية ، كما أن قصورهن المنيفة أصبت مرتعا للضباط الالمان · فلا غرو اذا ما كن ممتنّات لاجابة مثل هذا الطلب من مثل هذا الرجل !

وباع لندمنس الكثير من هذه المجوهرات ؛ ولكن الثمن لم يصل الى صندوق المقاومة ؛ بل أنفق في الحانات والنوادي الليلية ، على السكر والعربدة ؛ وفي شراء الحظوة لدى الفتيات اللواتي لا يتحملن هذا الدب البشري الاّ بثمن باهض أدناه الذهب البرّاق ! أما المجوهرات التى لم يبعها، فقد قدمها الى حظيّات أخريات زاعما لهن على سبيل المباهاة، أنها جزء من سلبه من النازيين انتزعه بالقوة ·

والى هذا الوقت كان لندمنس يسفُل في دركات النصب والاختلاس ؛ ولكنه ظل مخلصا بقدر ما يتعلق الأمر بوطنه · ومع ذلك ، كان ينطلق ، وربما دون أن يدرك ، في طريق لا رجعة فيه · فلقد كان لزاما عليه ، عاجلا أو آجلا ، أن يعوض ثمن المجوهرات التى تصرف فيها ، ما لم يجمع هذا الثمن من مصادر أخرى ليدفعه الى صندوق المقاومة ، وراح

زعيم أو زعيمان آخران من زعماء المقاومة ، يتشككان في إسرافه وبذخه ؛ اذ لم يكن من الميسور في أوربا المحتلة ، يومئذ ، الحصول بغتة على مبالغ كبيرة بوسائل شريفة • وفي الوقت نفسه ، بدأ لندمنس يتساءل كيف يصلح ما أفسد ، دون أن يطلّق حياة السفه والترف ؟!

ثم وقع حادث في شباط سنة ١٩٤٤ ، فعجّل بالسقطة الكبرى • لقد وضع الغوستابو أيديهم على شقيقه الأصغر وراقصة فرنسية تدعى ڤيرونيكا ، في نزل على طريق الهرب السرّي • واذا كان في جسم لندمنس الضخم مكان للحب ، فان ڤيرونيكا قد احتلت جميع ذلك المكان ! وأنت عليم بأن أسوأ اللحظات في حياة المرء ، هي التي يرى فيها أعز الناس عليه ، في أيدي طغاة قساة كالنازيين ؛ ثم يستفحل هذا السوء اذا عجز عن القيام بشيء لانقاذهم • ولكن مثل هذا كان يقع لرجال المقاومة كل يوم ؛ وكلّ ما كان في وسعهم أن يفعلوه ، هو المضي في عمليات الانتقام ببرود يتسم بالوحشية ! بيد أن لندمنس ، رجل المقاومة الصالح ، لم يشأ أن يغمس مشاعره في أعمال طائشة ، يائسة ، قد تجر عليه المخاطرة بحياة المزيد من أصدقائه وأقربائه •

وصبر عشرة أيام ؛ ثم أثبت أنه أضعف في المعيار الأدبي من جميع زملائه الذين هم أقل منه شهرة • فبعد أن جعل القلق ينهشه على مصير كل من أخيه وڤيرونيكا ، وبعد أن شعر بالشكوك تتزايد حول المجوهرات والنقود التي أؤتمن عليها ، قرر أن يساوم مع العدو • كان يعرف اثنين من الهولنديين يقيمان في بروكسل ، ويتعاونان مع

النازيين . أما أحدهما فيدعى أنتوني دامن ، وأما الأخر فهو كورنيلس ڤيرلوپ « صاحبي » في آيندهوڤن . واجتمع بهما في مقهى بميدان روچيه في بروكسل ؛ فقدم خدماته للنازيين بشرطين : الاول ، اطلاق سراح ڤيرنيكا وأخيه الاصغر ؛ والثاني ، دفع مبلغ جسيم له .

وانطلق ڤيرلوپ على الفور ، فعرض الأمر على الكولونيل جسكِس ، رئيس مكتب الاستخبارات الالمانى هناك ؛ فادرك هذا من ساعته أن هذه فرصة ذهبية لمبادلة سمكتين صغيرتين بحوت عظيم . وبعد يومين قابل لندَمنْس سرّا في منزل بالضواحى ، فكان بينهما حديث طويل !

وانتهى اللقاء بالاتفاق . ونفّذ الالمان التزامهم في اليوم التالي . أخرجوا لندمنس الاصغر وڤيرونيكا من السجن ، فوقعا على اقرار بأنهما قد عوملا معاملة حسنة ، ثم انطلقا في شوارع روتردام ينعمان بنسيم الحرية ، تحت شمس الربيع . أما كنك كونك فانه قد قبض الدفعة الاولى من أجر خيانته : فراح يمرح ، ويشرب ، ويفسق ، ويتعارك في الخمارات بحماس أشد من السابق .

ولأمر ما لم تخبر الاستخبارات الالمانية كلا من الغوستابو والشرطة السرية بهذه القصة . ولعل مردّ ذلك التنافس بين هذه الجهات ، أو عدم الرغبة في اشاعة الامر بنطاق واسع . وكان لهذا الكتمان نتائجه : ففى ذات يوم أغارت الشرطة السرية على مقر آخر للمقاومة في روتردام ، فوجد لندمنس هناك !

كانت لحظة حرجة بالقياس اليـه ؛ فهو لا يستطيع في هذا الموقف الا أحد أمرين : اما ان يعلن خيانته أمام رفاقه، واما ان يستسلم للموت الزؤام • وقد اختار الأمر الأول ـ أبدى للشرطة اشارة ، ليفهموا أنه منهم • ولكن أحد هؤلاء أعجبه جسمه الضخم ، وأساء فهـم اشارته ، فحسب أنـه يحاول الوصول الى مسدسه ؛ فبادره بطلقـة خرقت احدى رئتيـه •

وهرع به الى مستشفى الفوستابو ، لأن رئيس الشرطة السرية أدرك ان هذا ليس من رجال المقاومة العاديين • وكان الجرح قتالا ، لولا ان لندمنس له قوة سكان الآجام ! وفي غضون ثلاثة أسابيع ، صار يدخل في دور النقاهة ، ويتماثل للشفاء التام •

وزاره رئيس الاستخبارات الالمانيـة في المستشفـى ، فعرض عليه أن يرتب له « هربا » كي يلتحق بالمقاومـة ، فيواصل تأدية خدماته • ولكن لندمنس رفض الهرب وفق الخطة الالمانية ، وأبى الا أن يوغل في الخسة والدناءة • فاقترح ما جعل رئيس الاستخبارات يُصعق من الدهشة ـ اقترح أن يُستدرج رفاقه من رجال المقـاومة الى محاولة انقاذه ، ثم يبادون جميعا في كمين ينصب لهم ، ويلوذ هو وحده بالفرار !

ونجحت الخطة نجاحا عظيما ، فقد قُتل سبعةوأربعون من خيرة زملائه شهامة ووطنية ، لينقذوا زعيمهم الخائن !

وأنفق لندمنس الاشهر القليلة التـالية ، يكسب المال من الالمان بالوشاية بأعز أصدقائه ، وخيرة اتبـاعنا مـن

الرجال والنساء . كان يسلمهم واحدا واحدا ـ وهو مرتاح الضمير ـ الى أفظع أنواع التعذيب ، حتى يشملهم الموت برحمته ! كان يفعل كل هذا ، وهو الذى لم يطق أن يجد أخاه وعشيقته في أيدى الالمان أياما معدودات .

وحين قرأت في اعترافه أسماء اولئك الضحايا ـ وكان بعضهم من أقرب الناس الى قلبى ـ جُن جنوني . فآليت على نفسي أن ينال هذا النذل جزاء خيانته .

وكانت ذروة الخيانة في ذلك الاعتراف جريمة آرنهم : كان آنئذ مرتبطا بالجيش الكندى الاول ؛ فكلف بتنشيط حركة المقاومة في منطقة آيند هوفن ، لتكون عونا للقوات التى ستهبط هناك من الجو . وأدرك لندمنس أن هذه هى فرصته الذهبية للخيانة العظمى .

ولكنه في هذه المرة واجه عقبة ـ ذلك ان زعيم المقاومة المحلية شك في أمره ، فسعى في القبض عليه وحجزه . ومن سخرية القدر ، أن الكنديين أنفسهم قد بعثوا ضابط استخبارات ليطلقه بكفالة ، ويشهد باستقامته !

ولكن حتى هذا النذير ، لم يثنه عن طريق الخيانة . فقبل موعد الانزال بيومين ، قابل كويزيوتر من مقر الاستخبارات الالمانية في درايبركن ، فزوّده بجميع المعلومات التى أؤتمن عليها !

وكانت النتيجة تلك المذبحة الرهيبة للقوات الهابطة !

ويبدو أن هذا الوحش البشرى ، جعل في النهاية يعانى من خوف المصير ، ولربما كذلك من تعذيب الضمير . لقد وجد منتحرا في زنزانته قبل يومين من محاكمته !

الرجل الذى تاجر مـع هملر

في أوائل الحرب العالمية الثانية ، أدرج الحلفاء اسـم السويدى أركسن في القائمة السوداء · فقد ذكرت تقـارير استخباراتهم أنه كان يقوم برحلات منتظمـة الى المـانيا ، وينشىء صداقات حميمة مع أقطاب الغوستابو : كـل ذلك للاتجار بالنفط الالمانى ، ومساندة المجهود الحربى للعدو ·

وحين شاع هذا الخبر ، كان صدمة قاسية لاسرته · وصـار أصدقاؤه القدماء ـ وكلهم من انصـار الحلفاء ـ يعبرون الى الجانب الآخر من الشارع ، اذا ما رأوه مقبلا ؛ بل يتحاشون أن يكونوا معه في أي مكان ·

كان أرك إركسن يحب التجنس سويديا ؛ بيد أنـه ولد في الولايات المتحدة ، ودرس فيها ؛ فله هنـاك أهـل ومعارف · ومن هؤلاء ، صار الآن يتسلم رسائل قارصة ·

ولكن هذا كله لم يصده عن المضي في سبيله ·

كان نموذجا رائعا للبائع الامريكى ـ تقوم مهنته على انشاء « اتصالات » وثيقة ، واسعة ؛ لأنه يبيع مع بضاعته لطفه ومهارته ·

وقد اتخذ النفط مادة لتجارته ، لما يحيط به من اثارة، ولما يتيح من الوصول الى المقامات العالية · وقد قضى سنين في الشرق ، ثم في اوربا ، يعمل لحساب شركة « ستاندرد » ثم لشركة « تكساس » ·

وكان المتعاملون بالنفط ، في العشرينات والثلاثينات ، يؤلفون عشيرة دولية . وكنتَ ترى الرجل بشنغهاى في هذه السنة ، ثم في لندن في السنة التالية . وقد تنافسه منافسة قاتلة في هذا العام ، ثم تجلس الى جانبه في العام المقبل !

وكان بين أفراد هذه العشيرة الدولية أمريكيون وبريطانيون وهولنديون وألمان ؛ يعيشون جميعا في جو ملؤه المقامرات والمغامرات والصفقات ، بيد أن هذه لها خيوط تسحب من خارج الحدود !

وغدا أركسن مديرا لشركة « تكساس » في السويد ؛ ثم أصبح مواطنا سويديا ،فتسنّى له أن ينشىء شركته الخاصة .

وبعيد نشوب الحرب العالمية الثانية ، وجد الفرصة سانحة للتعامل مع النازيين . كان لدى الالمان اذ ذاك نفط فائض للتصدير ؛ ومن المستبعد ان يقدر الحلفاء - عن طريق الغارات الجوية - على عرقلة تجهيز هذا النفط بشكل مؤثر .

والتحق أركسن بغرفة التجارة الالمانية في ستوكهولم ؛ وراح يراود رجال الاعمال الالمان . وعلى أثر ذلك ، طفق يبتعد عن أغلب أصدقائه القدماء ، حاشا الامير كارل برنادوت ، قريب ملك السويد ؛ فانه بقي على صلات ودية معه ، لأن هذا كان يغازل الالمان أيضا !

وعلم أركسن ان هملر رئيس الغوستابو ، هو الذى يتخذ القرار النهائى في صفقات النفط . وكان لهملر ممثل

في السويد يقـال لـه الهر فنكه • وكان هـذا الهر نازيا متعصّبا ؛ ونقطة ضعفه هى استعلاؤه ، وتأثره بكل ما هو ملكي ! فساعد الامير كارل أركسن على انشـاء « اتصال » بينه وبين فنكه ؛ ثم غدا أركسن يفلح الارض ويزرعهـا ، ويقيم الولائم لصاحبه المتنفذ في منزله الريفى •

ولكن كان هناك آخرون لم يتجاوبوا مع أركسن ، على الرغم مـن محاولاته • ومن أبرز هؤلاء الهر لدقيك الملحق التجارى في المفوضية الالمانية • فلأمر ما كان هذا ينفر من أركسن نفورا شديدا •

وعلى الرغم من ذلـك ، استطاع أركسن في ربيـع سنة ١٩٤١ أن يحصل على اذن لزيارة ألمانيا ؛ وعلى رسائل توصية من فنكه • وفي المطار في ستوكهولم ، أخرت الشرطةالسويدية طائرته ؛ ثم قامت بتفتيش شامل له ولامتعته • ولم تعثر على مايشتبه به ، فأذنت له بالرحيل •

وفي برلين أقلته سيارة رسمية فخمة الى مقر الغوستابو• فالتقى هنا رجلين كانا معه على نفس الطائرة ، وتبين أنهما من وكـلاء الغوستابو • وقد علقـا على حادث المطـار في ستوكهولم ، بأنه من تدبير ممثلي الحلفاء •

واتصل أركسن برجـال النفط الالمان البارزين ، ولا سيما في هامبورغ • فهنا زار المصافي ، وتحدث مع المدراء ، وبحث شروط العقود التى يروم ابرامها •

ثم راح يبحث عن أشخاص كان يعرفهم مـن قبـل ، ويتعاملون بتجارة النفط أيضا • فعثر أولا على ڤون فونش ،

النبيل الالماني الذي تلقى بعض دراسته في انكلترا ، وعمل في وقت ما مع شركة شل - رتمشيا مع إحاطة صفقاته بالكتمان ، فقد كانت محادثاته مع هذا الرجل سرية للغاية · وفي ذات يوم أعطاه إركسن وثيقة خاصة غامضة ، فأودعها فونش في صندوق دفنه في ساحة منزله الخلفية · ثم وجد ثانيا الهر ڤون ستوركر ، وهو من صيارفة النفط ، ومن عائلة عريقة في هامبورغ · وقد تسلم هذا ورقة مماثلة لتلك التي تسلمها فونش · وقد حرص إركسن على ألا يراه أحد هذين الرجلين مع الآخر !

وبعيد عودة إركسن الى السويد ، بدأت تصل الارساليات الاولى من النفط الالماني ؛ وعندئذ وضعه الحلفاء في القائمة السوداء ، وشدد أصدقاؤه مقاطعتهم له ، حتى صاروا يبرحون المطعم الذي يدخل اليه · وقد قاست زوجته السويدية عنتا شديدا ، وحرجا عظيما ؛ فهي تكره النازيين، ومع ذلك كان عليها أن تكرم في منزلها الاصدقاء الجدد الذين اتخذهم زوجها من بينهم !

وقام إركسن في الاشهر التالية ، برحلات أخرى الى ألمانيا ؛ واستمر ينمي أصدقاءه داخل الغوستابو · وكان هؤلاء يدعونه الى بيوتهم ، وكان هو يجلب لزوجاتهم من السويد ، الزبد ، والمعاطف الجلدية ، وهدايا أخرى · وجعل يعقد صفقات أخرى مع أمثال ڤون فونش وڤون ستوركر ؛ ولو أنه صار من الاصعب الحصول على النفط من ألمانيا ، كلما صعّد الحلفاء غاراتهم الجوية عليها ·

وفي ذات مرة ، انتهى إركسن من جولة في أحد المصافي ، فدعاه المدير للبقاء وتناول العشاء . وقد تردد في قبـول الدعوة ، ولكنه وجد من العسير ان يرفضها . وقدمت الوجبة في مكتب المدير ، واستمرت حتى منتصف الليل تقريبا . وما كاد إركسن يغادر المصفى ، حتى نزلت عليه قنابل الحلفاء ، فلم يبق منه شيء . وكاد الحلفاء في هذا الوقت ، وفي هـذا المكان ، أن يضعوا الحد لصفقات إركسن الاخرى .

وعظم ضرب الحلفاء للنفط الالماني ، وتزايد تأثيره : ومع ذلك ، فقد كان في أواخر سنة ١٩٤٤ ، قسم هام مـن هذه الصناعة لما يزل في أوج نشاطه . كانوا يصلحون مـا يفسد الحلفاء بأسرع مما يتوقع هؤلاء ؛ هذا فضلا عن أن العديد من المصافي ، كان قـد أخفي إخفاءا لم يستطع معه الحلفاء أن يمسوه بسوء .

وفي خريف سنة ١٩٤٤ ، كان المجهود الحربي للحلفاء يتصاعد نحو معركة الراين الفاصلة . فأدرك إركسن أن عليه أن يعمل بسرعة إن شاء أن يبرم المزيد من الصفقات . وكان منذ مدة طويلة ، يتطلع للقيام بجولة شاملة لصناعة النفط الالمانية ... لقد آن الآن أوانها . ورأى انه كان في حالة من تلك الحالات التي ينبغي فيها لرجل الاعمال أن يصل الى الرأس ـ وكان الرأس في هذه الحالة هو هملر .

وفكر إركسن بصفقة عظيمة تليق بمقامين : مقامـه هو ، ومقام هملر . فاقترح مشروعا لانشاء مصفى ضخـم في السويد ، تبلغ كلفتـه خمسـة ملايين دولار . ويموّل

برأس مال مشترك ـ سويدى وألمانى · وقد قدّر ان هـذا الاقتراح سوف يلقى هوى لدى الالمان لسببين : الاول ، انه يوفر لألمانيا مصدرا للنفط في بلد محـايد فلا يمتد اليـه القصف ؛ والثانى ، أنه يوظف أموالا نازية في قطر محايد ، يمكن الاستفادة منها اذا ما اندحرت ألمانيا ·

ووضع إركسن خطة هذا المشروع ، وعرضها على فنكه، فسرّ هذا غاية السرور ؛ وكذلك لقيت لدى أقطاب النازية في ألمانيا كل اهتمام · بيد أنه كان ثمة صوت معارض ـصوت الهر لودفك ؛ فقد ظل هـذا يصرّ على أن إركسن رجـل مشبوه ! كـان لودفك دبلوماسيا من عصبـة روبنتروپ ؛ وكان الصدام بين هذه العصبة والغوستابو يزداد عنفا كلما تقدمت الحرب ـ وفي كل مرة ، كان هملر هو الذى يفوز في النهاية · وهذا ماجرى في هذه القضية ، فقد أهملت معارضة لودفك اهمالا ، ورحب رجال الغوستابو بمشروع أركسن، ومهدوا له الطريق ليصعد الى هملر !

وحلّ شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٤ ؛ فاستقل إركسن الطائرة كرة أخرى ، فانطلق من مطار بروما ، وراح يمرق في الاجواء فوق مياه البالطق الرمادية ، والسهول الموحشة لألمانيا الشمالية ، حتى حطّ في مطار تمپلهوف · وقُدم له جناح رائع في أحسن فندق في برلين ، لم تسقط عليه قنـابل الحلفاء بعد · وفي الصباح أقبلت عليـه السيارة السـوداء الكبيرة ، وفيها حراس الغوستابو ·

وفي المقر الرئيسى للغوستابو رحب بـه زعيمهم بكـل لطف ، وقال له : « لقـد أسمعنا عنـك الهر فونكه أشياء

عظيمة ! » ثم بحثا بتفصيل مشروع المصفى المقترح ، وضرورة إطلاع أركسن شخصيا على المصانع النفطية الالمانية . وانتقلا بعد ذلك الى التحدث عن أمور أخرى . وسأل هملر بغتة : « ماذا سيحدث اذا اضطرت القوات الالمانية الى غزو السويد ؟ » ، فاجأب إركسن : « سوف يقاتل السويديون قتالا مريرا » . لقد أدرك أن السبيل للتأثير في هملر هو الصراحة وليس التزلّف ، وكان في هذا على حق . ومهما يكن من شيء ، فان هذه المقابلة قد إنتهت بأن حصل إركسن على إذن فريد ، ينص على أن يسمح له بالذهاب حيثما يشاء ، وأن يرى كل ما يشاء ، مما يتعلق بصناعة النفط . وخصصت له سيارة وحصة وافرة من البنزين .

ولم يقصّر إركسن في إستغلال هذا الاذن ؛ فقد تجول في أوربا الوسطى من كولون الى براغ ، وأطلع على المصانع الضخمة في ليونا وأنندورف وهاليه ، وتحدث مع المدراء ليعلم ماذا كانوا يفعلون ، وماذا يعتزمون أن يفعلوا . وقد حصل على الصورة الكاملة ، كما ينبغي لرجل الاعمال الذى يستكشف قطرا جديدا .

وعاد بهذه الصورة الكاملة الى السويد .

ثم انتهت الحرب ؛ فاذا بالمفوضية الامريكية في ستوكهولم تقيم مأدبة غداء فخمة على شرف إركسن ! وقد دعى الى هذه المأدبة جميع أصدقائه القدماء ، فعاد الى صفوفهم وسط الانخاب والتهاني . واذ ذاك بدأ العالم

يعرف تفاصيل أغرب قصة من قصص الحرب السرّية : كيف زار ممثل لاستخبارات الحلفاء إركس بعيد اندلاع الحرب : وكيف وافق هذا على ان يغدو جاسوسا على الالمان بالمجان : وكيف اقترح هو نفسه ان يوضع في القائمة السوداء : وكيف أن الامير كارل برنادوت الذى تعاون معه، كان أيضا جاسوسا للحلفاء : وكيف ان النفط الذى كان يتسلمه من الالمان ، راح يستخدم من قبل الحلفاء ضد هؤلاء: وكيف أعطى لفون فونش وفون ستوركر وآخرين تلك الوثائق الغامضة ، لتشهد بعد انتصار الحلفاء بأنهم كانوا من الموالين المتعاونين : وكيف أن كل واحدة من تلك الوثائق كانت سيفا مصلتا فوق رأسه ، طوال إقامته في أنحاء ألمانيا: حتى حرمته من النوم المريح ، وجعلته يحسب كل دقة على الباب آناء الليل ، أن رسولا من الغوستابو جاء ليزف اليه الموت !

وكان للمعلومات التى زوّد بها الحلفاء ـ هو وغيره ـ ثمر • ففى الاشهر التى سبقت معركة الراين ، ارتفع هجوم الحلفاء على النفط الالماني الى الذروة • وكان طياروهم يعرفون مواقع المصافي الكبيرة والصغيرة بكل دقة • وفي اليوم الذى كان يتم فيه مصفى جديد ، اذا به يبرز على خرائط هؤلاء الطيارين ، ليطيروا اليه مباشرة . وليمسحوه من فوق الارض مسحا ، مهما تفنن الالمان في إخفائه • بل كانوا يعرفون فوق ذلك مواقع ما يحمي تلك المصافي والمصانع من المقاتلات ، والمدافع المضادة للطائرات ، ومولدات ستائر الدخان • بل ان علمهم قد وصل الى درجة

صاروا فيها اذا أعطبوا مصفى أو مصنعا ، يدرون كم من الوقت يحتاج لاصلاحه ، فاذا ما انتهى الوقت ، عادوا اليه ليفعلوا به مافعلوه أول مرة !

وهبط الوقود الذى يجهز للقوات الالمانية الى النزر اليسير ! حتى اذا مابدأ هجوم الحلفاء الاخير ، كان الكثير من دبابات العدو واقفا في ساحة المعركة يتفرج ، وراح العديد من طائراته يهوي الى الارض لنفاد الوقود !

وحقق الحلفاء جميع وعود إركسن لأعوانه من امثال دون فونش وفون ستوركر · أما الهر لودفك ـ الرجل الالماني الوحيد الذى حزر حقيقة إركسن ـ فقد أطبقت عليه ظلمات السجون ، ولم يكن له من سلوة أو عزاء سوى أن يعود الى الوراء ، ليستمتع بصدق حدسه ، وصحة حكمه ! وأما الهر فنكه ، فقد مكث عدة أشهر متخفيا في الدانمرك تحت إسم مستعار ، حتى القي القبض عليه في النهاية ·

وعاد إركسن الى هواه القديم ـ تجارة النفط · وصار في هذه المرة أعظم شأنا ، وأكثر نفوذا ؛ ويحتل مكانة خاصة بين رجال النفط في الشرق والغرب ·

جريمــة العصر

في هــذا العرض الميثر ، يكشف جي· إدكار هـوفر رئيس مكتب التحقيق الفدرالي ، الستار عن تفاصيل قضية كلاوس أميل جوليوس فوخ وهاري گولد ، مستمدة مـن الاضابير السرية للمكتب المذكور · وهو في هـذا العرض يعيد بدقة بالغة ، ومهارة فائقة ، تركيب الوقائع في أوقاتها وأماكنها ، ابتداءً من اللقاء الأول بين فوخ وهاري گولد في ركن شارع في الجانب الشرقي من مدينـة نيويورك ، ثـم التطورات التالية خطوة خطوة ، ثم القبض على هاري گولد في النهاية · يقول هوفر :

علم مكتب التحقيق الفدرالي أن الحقـائق الاسـاسية للانشطار النووى قد سرقت · ولا يمكن البوح بمصدر هذا العلم لأن الامر يتعلق بالامن ، وحياة بعض الافراد · وكل ماأستطيع قوله ، هو أن معلومات قاطعة وضعت فوق مكتبى ، عليها هذا العنوان المريع : لقد حصلت دولة عظمى أجنبية على أسرار تركيب القنبلة الذرية ! ومن هنا بدأت مسؤولية المكتب في العثور على المجرمين ؛ فعبأنا لهذا الغرض جميـع الامكانيات الهائلة التى في حوزتنا ·

وفي البدء ، لم يكن لديتـا من سبب للشك في الدكتور فوخ ؛ فالتحريات التى أجريت عنه ، في الداخل والخارج ، دلت على أنه من العلماء الاجانب الموثوقين · ثم صرنا نواصل هذه التحريات بعد الاكتشاف الخطير ، فكان كلمـا مرت الايام ، أشار اصبع الاتهام الى ذلك العالم الرياضىالفيزيائى

اللامع : كلاوس فوخ ! وعلى الرغم من انـه قد كان حذرا جدا ، فقـد ترك بعض الادلـة في الولايات المتحدة ـ أدلة لا يمكن الكشف عنهـا ، ولكنها تفضح أمره • ومن هـذه الادلة ، توصلنـا الى ان هـذا الشاب المولود لقسيس ، قد هرب من استبداد ألمانيـا الهتلرية ، لينعـم في ظل الضيافة والحماية الانكليزية ، ثم ليسرق بكل استخفاف فظ أخطر أسرار العالم الحر ، فيهديها الى الاتحاد السوفياتى !

وفي هذا الوقت ، كان فوخ قد عاد الى انكلترا .فالتحق بهارول مركز البحوث الذرية • فقام مكتب التحقيق الفدرالى على الفور ، بتقديم جميع المعلومات التى توفرت لديـه ، الى السلطات البريطانية • وهنا تولى الامر رجـال الامن البريطانيون برئاسة الخبير القدير سر پيرسي سلـليتو • وعند حلول كانون الثانى سنة ١٩٥٠ ، توصل هذا الخبير الى أن فوخ ، هو بدون أدنى شك ، الشريك الرئيس في هذه الجريمة • فعقد معه جلسات طويلـة ، متواصلة ، انتهت باعترافه • بيد أن هذا الاعتراف قد جعلنا ندرك ان بحثنا الحقيقى قد بدأ الآن ، لأن فوخ بعد ان أدان نفسه ، لـم يقدم اسم واحد من شركائه !

وكان مما ذكره ، انه قبل وصول هتلر الى السلطة ، قد التحق بالحزب الشيوعى الالمانى ، وشارك في اعمال المقاومة • وبعد أن دخل سيدان البحوث الذرية في انكلترا ، بادر من تلقاء نفسه الى الاتصال بجهاز التجسس السوفياتى ، لتقديم النووية • وهو يظن ان هذا العميل ، لم يكن مستخدما ي المعلومات الذرية السرية • وقد كان قبل مجيئه الى امريكا

على اتصال بعدة عملاء في انكلترا ؛ وبعد عودته الى الجزر البريطانية ، واصل تقديم المعلومات السرية الى الشيوعيين، حتى أوائل سنة ١٩٤٩ ٠

وأفشى فوخ كذلك ، انه في أثنـاء وجوده في الولايات المتحدة ، قد تعامل مع وكيل سوفياتى واحد لا غير ٠وحين سئل عن اسمه أجاب بأنه لا يعرفه ٠ بيد انه قال ان الرجل بدا يعرف الكيمياء والهندسة ، ولكنه لا علم له بالفيزياء النووية . وهو يظن ان هذا العميل ، لم يكن مستخدما في منشأة للطاقة النووية ٠ ثم طُلب اليه ان يصفه ، فقال : انه بين الاربعين والخامسة والاربعين من العمر ، طوله خمس اقدام وعشرة انجات تقريبـا ، عريض البنيـة ، مدوَّر الوجه ، ويغلب ان يكون من الجيل الامريكي الاول ٠ وسُئل عن محل اقامته ، فأجاب فوخ بأنه لا يعرف أين كان يقيـم ذلك العميل ٠ فلقد ذهب لملاقاته أول مرة حاملا كرة تنس ، في حين ان الآخر كان يلبس قفَازا ، ويحمل كتابا أخضر ٠ وسئل كم مرة قابل ذلـك الرجل ؟ فأجاب : عدة مرات في نيويورك ، ومرة واحدة في كمبرج بولاية ماساشوستس ، ومرتين في سانتا فيه ونيومكسيكو ٠ ومتى كان ذلك ؟ فقال: إن لقاءات نيويورك تمت في سنة ١٩٤٤ ؛ وانـه يظن أن آخر لقائه بالرجل كان في خريف سنة ١٩٤٥ ٠

هذا هو كل ما أدلى به ٠ وياله من وصف ينطبق على ملايين الرجال ! وياله من نسيج مهلهل للوصول الى جاسوس يهيم في قطر كالولايات المتحدة !

★ ★ ★

ولم يتول مكتب التحقيق الفدرالى ، في جميع تاريخه ، قضية أهم من هذه : كما اننا لم نشعر قط بضغط مثل الضغط الذى شعرنا به فيها ـ يجب ببساطة ان يُعثر على هذا الرجل المجهول ! ومما زاد المهمة صعوبة ، ضرورة السرّية المطلقة ؛ فلم يكن ليعلم بالتفاصيل الكاملة ، وبشبكات التحقيق المنبثة ، سوى القليل من أقطاب المسؤولين في أمريكا • واني لأشك فيما اذا كان بالامكان في يوم من الايام ، الكشف علنا عن جميع العناصر التى لها علاقة بهذه القضية •

ولكن آن الاوان لسرد ما يمكن اطلاقه ، دون انتهاك للسرّية ، ودون تعريض حياة البعض للخطر بلا ضرورة • ومنذ البداية كانت هذه المطاردة فريدة في نوعها . لا تشبه مطاردة سارق مصرف ترك بصمات اصابعه على باب الخزانة ، ولا تشبه مطاردة عصابة لدينا تصاوير أفرادها ، وأوصاف شخصياتها ، والسجلات الجنائية المطولة لها ـ انها مطاردة شخص قد يكون أي رجل تقريبا في الولايات المتحدة بأسرها !

وقد بدأنا التحقيق في كمبرج ، لأن فوخ قد اعترف بأنه قابل العميل هناك ، ولأنها موطن شقيقة فوخ ، السيدة كريستل هاينمن • وكنا نعلم من قبل ان العالم قد زارها هناك • فهل تعلم السيدة هايتمن أي شيء عن العميل الذى ذكره فوخ ؟ أجل ، انها تذكر رجلا في حوالى الاربعين ، ربع القامة ، ذا شعر كستنائي داكن ، جاء الى منزلها ثلاث مرات• وفي زيارته الاولى قدم نفسه كصديق لشقيقها ، وقال انه كيمياتي إشتغل مع الدكتور فوخ ، ويتوق لرؤيته (كان هذا

في الوقت الذى اختفى فيه فوخ من نيويورك) • ولم تستطع أن تتذكر إسمه ؛ وأكدت أنه لم تكن لديه نبرة خاصة • وكانت زيارته الثانية في أثناء وجود فوخ لديهما بعد عيد الميلاد • وقد اتضح لها أن الرجلين قد تقابلا من قبل ، وقد حيا كل منهما الآخر في غرفة استقبالها • ومع أنها كانت حاضرة في الغرفة بعض الوقت ، الا انها لم تتابع محادثتهما • وحين انصرف الزائر ، لم يذكر شقيقها عنه شيئا • ولكن أطفالها أحبوه على كل حال ــ لقد جلب اليهم بعض الحلوى • وبعد أسابيع أو أشهر قليلة ، جاء الرجل المجهول الى منزلها مرة أخرى ، فبقي لتناول الغداء • ويخطر ببال السيدة أن الرجل ربما قد ذكر ان له زوجة وطفلين •

وقدم روبرت هاينمن ، زوج كريستل ، تفاصيل أخرى • فقد رأى الرجل الغريب في أثناء زيارته الثالثة ، وكان عائدا من جامعة هارفرد للغداء • فهو يتذكر انالزائر قد تطرق الى فيلادلفيا ؛ ومن رأيه أنه قد جاء الى بوسطن بالقطار • وأفاد صديق لآل هاينمن كان حاضرا في احدى زيارات الغريب ، ان هذا بحث في موضوع الفيتامينات ، وانه من حديثه قد ترك لديه انطباعا انه متخصص بالباكتريات ؛ ولربما كان على علاقة أيضا باحدى شركات البقالة التى تبيع بالجملة في نيويورك •

وتذكرت السيدة هايتمن ، إذ ذاك ، ان الغريب وعد ابنها بطقم أدوات كيميائية • وكان عمر الصغير في حينه ست سنوات ، وقد أصبح الآن في الحادية عشرة ؛ فلما سأله

أبوه عن ذلك لم يتذكر شيئا ، كما لم تتذكره أخته الصغيرة كذلك • ثم قدم السيد هاينمن ، بغتة ، دليلا جديدا ـ فهو يعتقد ان الاسم الاول للرجل قد يكـون « جيمس » ، وأن اسمه الاخير يبدأ بالاحرف D-A-V ، أي ان اسمه الناقص ربما كان : جيمس ديف ••• وكان هذا جُماع مايستطيع تذكره •

فهل كان في مدينة نيويورك، أو سانتافيه، أو فيلاديلفيا، رجل باسم « جيمس ديف ••• » ؟ واذا وجد فأين يحتمل أن تكون منطقة سكنه ؟ وبدأ المكتب بغربلـة أضابيره : فكانت عملية طويلة ، مرهقة ؛ ولكننا لم نستطيع ان نتجاوز اية محاولة ذات فائدة • وبعد فترة في هـذه العملية ، برز اسم فوق الاسماء الاخرى ـ لنقل انـه جيمس ديفدسن ؛ وهذا هو مهندس مقيم في مدينة نيويورك • وكان في اوصافه مطابقا للأوصاف التي عرفناها ؛ وتبين من سجل عمله انـه كان متغيبا عنه في أثناء زيارة فوخ لكمبرج • واكثر مـن ذلك ، انه كان بوسعه ان يحضر الاجتماعات الاخرى أيضا•

وأرسلنا بالطائرة الى انكلترا مجموعة من التصاوير ، فعرضـت على الدكتـور فوخ في سجنه ـ كانت تصـاوير لأشخاص مختلفين ، يصلح كل منهم أن يكون الرجل المطلوب فنبذ الدكتور فوخ جميعها حاشا التصوير الذى يعود لجيمس ديفدسن • لقد تفحّصه فترة طويلة ، وهو ينقر على المنضدة بأصابعه الدقيقة ، وتظهر على جبينـه أخاديد عمقية • ثم تمتم : يوجد شيء مألوف حول هـذا الرجل ••• وغطى

جبين الصورة ليجعل لها ما يشبه القبعة ، فأضاف : لاأستطيع أن أقسم جازما ، ولكني على يقين كاف بأن هذا هو الرجل . وطلب المحقق الى العالم الالمانى أن يتصور في ذهنه صاحبه الامريكى كما رآه في لقائهما الاول في مانهاتن ، ثـم ينظر الى الصورة ثانية . ففعل كوخ هذا ، وراح يتمعن طويلا وبشدة . ثم هز رأسه ، وقال مرة أخرى : أظن انه هـو الرجـل .

ولكن من الواضح انه لا يمكن ان يقوم تحقيق جازم ، على دليل هذه طبيعته ؛ بل لا بد من وجود شيء يعززه . لا سيما وأن التهم من الخطورة بحيث لا تدع مجالا لاحتمال الخطأ . وعلى ذلك ، تقرر عرض التصاوير على آل هاينمن، فاذا اختارا هما أيضا صورة ديفدسن ، تأيد تشخيص فوخ الى درجة عظيمة .

ونظر هاينمن وزوجه الى التصاوير بامعان ، ثم هزا رأسيهما . كلا ، انهما لم يريا من قبل أي رجل من هؤلاء . وبعد فترة ، أتيحت لروبرت هاينمن الفرصة لرؤية جيمس ديفدسن شخصيا ، وهو إختبار أدق من الصورة ، فكان أكثر جزما بأن هذا الرجل لم يزر منزله إطلاقا .

فمن هو المصيب ـ فوخ أم أخته وزوجها ؟

إن الاسباب التى جعلتنـا لا نستطيع ان نلقي القبض علي ديفدسن ، بناء على تشخيص الدكتور فوخ وحده ، هى نفسـها التى تجعلنا ، الآن ، لا نستطيع أن نسـقطه مـن

حسابنا ، بناء على نفي آل هاينمن ـ إن البحث ينبغي أن يمضي في طريقه الطويل ٠

وبما ان فوخ وآل هاينمن متأكدون ، على ما يبدو ، من ان العميل المجهول هو كيميائي : فقد قام المكتب على الفور ، باستعراض منظم لجميع القضايا التى مرت به ، وكان أحد أطرافها كيميائيا ٠ وجعل كل من مقرنا الرئيسي في واشنطن ، وفروعنا الاثني والخمسين في الاماكن الاخرى ، تبحث عن كيميائي تتوفر فيه الصفات الاخرى ٠ ولم نلبث أن وضعنا أيدينا على عدة مشبوهين ـ قسم تنطبق عليه جميع الصفات ، وقسم تنطبق عليه بعض الصفات ، وقليل تنطبق عليه صفة واحدة ٠ ورحنا ندرس كل واحد دراسة دقيقة ؛ وفي الوقت نفسه طيّرنا المزيد من التصاوير الى ال هاينمن في كمبرج ، وعبر الاطلسى الى فوخ ، للقيام بتشخيص جديد ٠ وتتابعت هذه الدفعات من التصاوير المرسلة لهذا الغرض ، حتى بلغ عددها ألفا وخمسمائة ! ورأى آل هاينمن في بعضها ملامح مألوفة ، ورأى فوخ مثل ذلك في بعض آخر ؛ ولكنهم جميعا لم يستطيعوا الجزم بأنهم قد رأوا في هذه التصاوير وجه الرجل الذى إلتقوا به !

وإذن ، فنحن حتى الآن ، ليس لدينا سوى تشخيص فوخ لجيمس ديفدسن ٠

وهنا إتخذ تحقيق المكتب الفدرالى شكل الاخطبوط ـ اندفع في كل وجهة محتملة ٠ ذهب فريق يتحدثون مع نزلاء العمارة رقم ١٢٨ ، بالشارع ٧٧ غربا ، بمدينة نيويورك؛

حيث كان فوخ يقيم • ومن الطبيعي ان يبعثر مرّ السنين اولئك النزلاء في أماكن مختلفة ؛ ولكن رجالنا وجدوهم وقابلوهم •

وقد أجمع كلّهم على أن الدكتور فوخ عالم لامع ،كاره للثرثرة ، غير ميّال للاختلاط • وهم لا يعرفون شيئا هاما عن أصدقائه • وحين سُئلوا هل يشكون في وجود نشاط تجسّسي له ، أو هل يعرفون شيئا عن مثل هذا النشاط ، كان جوابهم : كلا ، البتة • بل هم ، في الواقع ، دهشون جدا لالقاء القبض عليه •

وذهب فريق الى سانتافيه ـ يحققون في مكاتب تذاكر الباصات ، والخطوط الجوية ، والسكك الحديدية ؛ وقد حللوا سجلات جميع الفنادق المعروفة ؛ فلم يعثروا على معلومات تتعلق بأي واحد من المشتبه بهم •

وانطلق فريق ثالث الى المختبرات الكيميائية في مدينة نيويورك • ولكي تقدر عظم هذه المحاولة ، فاعلم ان هذه المدينة ، قد أجازت في سنة ١٩٤٥ وحدها ، خمسا وسبعين ألف مؤسسة كيميائية !

وكان لهذه التحقيقات المرهقة ، الواسعة، نتيجة هامة ـ وهي نفي الشبهة عن جيمس ديفدسن بشكل قاطع • لقد علمنا على وجه اليقين أن لهذا الرجل صلة بالنشاط الشيوعي. ولكننا علمنا أيضا انه لم يكن متاحا له ان يصير شريكا لفوخ • وكانت هناك فائدة أخرى بعيدة الامد ـ لقد أدرجنا

في سجلاتنا معلومـات جديدة عن الشؤون الشيوعية ، ذات فائدة قيمة للتحريات في المستقبل ٠

وصرنا ندنو من طريدتنا ٠ فبعد ان استبعدنا المشبوه تلو المشبوه ، ضـاق العدد من ألف وخمسمائة الى حـوالى العشرين ٠ ومن بين هذه الزمرة الصغيرة ، برز مشبوه واحد فوق الآخرين ٠ انـه في الاربعين مـن العمر ، كستنائى الشعر ، ربع القـامة ، ليس من الجيـل الامريكى الاول ، ولكنه جاء الى امريكا طفلا ، فمن السـهل ان يحسبه المرء مواطنا أصليا ٠ وهـو بعد هـذا كلـه كيميائى يقيـم في فيلاديلفيا ، وقد قام برحلات عديدة الى نيويورك ٠

واسم هذا المشبوه هارى گولد ٠

ومع ذلك ، كان هنـاك بعض الاختلاف : يعتقـد آل هاينمن أن الغريب متزوج وله أطفال ٠ وگولد أعزب ٠ كما يعتقد آل هاينمن ان اسم الكيميائى المجهول هو جيمس ديف ٠٠٠ ، وهذا الرجل اسمه هارى گولد ، ولا يوجد أي شبه بين الاسمين ٠

وكان هناك سبب هام حملنا على ان نركّز على هـذا الرجل ٠ لقد جذب اهتمـام مكتبنا لأول مرة في مايس سنة ١٩٤٧ ؛ على أثر مقابلة أجراها المكتب مع مهندس كيميائى بمدينة نيويورك يدعى ابراهام بروثمن ، نتيجة لمعلومات أدلت بها فتاة شيوعية تدعى اليزابث بنتلى ٠ لقد ذكرت لنا هذه الفتـاة ، أن هنـاك علاقـة بين بروثمن وجيكب گولوس الشيوعى المعروف ، والجاسوس للسوفيات في سنة ١٩٤٠ ٠

ففى صيف وخريف سنة ١٩٤٠ ، توسطت الآنسة بنتلى في نقل مخططات لعمليات كيميائية مختلفة ، من بروثمن الى گولوس • ثم أخبرها هذا الاخير بأنه صار يشمئز من بروثمن ، وسوف يستبدله بعميل آخر • ولكن بروثمن قال في استجواب سنة ١٩٤٧ السابق الذكر ، ان الآنسة بنتلى ــ وكان يعرفها باسم هيلين فقط ــ قد خلفها في التوسط هارى گولد •

وفي سنة ١٩٤٧ كان هارى گولد يعمل كيميائيا في مختبر بروثمن في لونك آيلند • وعند استجوابه اعترف صراحة بأنه كان قد قدم الى گولوس في تشرين الاول سنة ١٩٤٠ ، في أثناء اجتماع للجمعية الكيميائية الامريكية بمعهد فرنكلن في فيلادلفيا • وبعد الاجتماع أسرّ له گولوس ان له علاقات مع ابراهام بروثمن ، وأن هذا يزوده أحيانا بمعلومات خاصة وخرائط في الحقل الكيميائى • ثم عرض عليه ان يتسلم هو هذه الاشياء من بروثمن ، فيقوم بتحليلها من الوجهة الكيميائية •

ووافق گولد على هذا العرض ؛ وبعد الاتفاق مع بروثمن أيضا ، صار هذا يزوده بالخرائط والمخططات في كل لقاء يتم بينهما • ويزعم گولد أن گولوس لم يكن شديد الاهتمام بتسلم هذه الخرائط والمخططات ؛ واذ بقيت عنده، فانه قد أتلفها فيما بعد •

ومهما يكن من شيء ، فان كلا من هارى گولد وابراهام بروثمن ، يصرّان على أن تلك العمليات جميعها ، لم تكن

سوى صفقات عادية ومشروعة . وحين استجوب هارى گولد في سنة ١٩٤٧ ، كان گولوس قد مات ، فلم يبق هنـاك من يناقض هذا الزعم .

وفي تلك السنة أيضـا ، أستدعي هـارى گولد للادلاء بشهادته أمام هيئة المحلفين الفدرالية الكبرى في نيويورك . وهناك سمع شهادات أخرى حول احتمال انتهـاك القوانين الفدرالية المتعلقـة بالتجسس وغيره ، من قبـل أشخاص استخدمتهم الآنسة بنتلى .

وقد انتهت تلك الهيئة بعد التحقيق ، الى ان تسليم تلك المعلومات والخرائط ، لا يندرج تحت المفهوم الفني للقوانين المتعلقة بالتجسس . وبناء على ذلـك ، لم يتخذ أي اجراء ضد هارى گولد ؛ ولكن المكتب قد جمـع حـوله معلومات مفيدة للغاية .

ومن هذه المعلومات تبين لنا ، ان هذا الرجل كيميائى تنطبق عليه عدة أوصاف أخرى للشخص المطلوب . وحلّقت تصاوير هارى گولد فوق الاطلسى ، في طريقها الى الدكتور فوخ . ونظر العالم الى التصاوير شزرا ، ثم هز رأسه وقال: كلا ... ليس هذا صاحبى الامريكى !

فهل عاد بنـا هذا البحث المرهق ، الطويل الى نقطـة البداية ؟ وهل علينا ان نسلك سبيلا آخر ، لنبنى النجاح على أنقاض الفشل ؟ أن مثل هـذا الاخفاق والتحول ، أمر رتيب في كـل تحقيق تقريبا . بيد اننا كنـا مانزال غير مقتنعين باستبعاد هارى گولد نهائيا .

وكان يثب أمامنا دائما هذا السؤال : هل يقول فوخ وآل هاينمن الحقيقـة ؟ أو هل يخش الاخيران أن الضيف الغامض اذا عـُرف وقدم للعدالة ، تورّطاهما معه أيضا ؟ ولكنهما من الناحيـة الاخرى كانا قد أبديا كـل مساعدة ممكنة • وقد يكون مرور الزمن قد حجب ذاكرتيهما • أما فوخ ، فهو في حالته الذهنية المضطربة ، قد يعتقد مخلصـا أن گولد ليس رجله •

وانبث رجالنـا يتصلون بأصحاب گولد وبروثمن ، ويتحدثون معهم ؛ سعيا لالقاء المزيد من النور على شخصية هذا الكيميائى من فلادلفيا • ومن خـلال تلك الاحاديث ، برزت حقيقة جديدة • قال صديق سابق لبروثمن ، انـه يتذكر رجلا اسمه فرانك كپلر كان صاحبا لبروثمن ؛ وهو يشعر أن كپلر هذا لربما يعمل في نفس الميدان ـ الكيمياء• فوضعت بين يديه مجموعة من التصاوير ، وطـُلب اليه ان يلتقط صورة كپلر من بينها ان وجدت • وجعل يتفحص التصاوير مليـّا ، ثم أشار بدون تردد الى واحد منها وقال : هذا هو فرانك كپلر •

أفتدرى الى أية صورة أشـار ؟ لقد أشـار الى صورة هارى گولد بعينه !

والآن ، لماذا يتخذ هارى گولد إسما مستعارا في لقائه لأحد أصدقاء بروثمن ؟ أليس هـذا بالامر الغريب ؟ وعلى ذلك ، صار هذا الرجل في ربيع سنة ١٩٥٠ ، أكثر من أى وقت مضى ، المرشح الاول لأن يكون ذلك الكيميائى المجهول•



في الخامس عشر من مايس سنة ١٩٥٠ ، دخل اثنان من أكفأ رجالنا مستشفى فيلادلفيا العام ، وسألا عن هارى گولد الذى كان يعمل هناك ، ككيميائى في قسم البحوث البيولوجية · وكان آنئذ مشغولا ، فألتمس منهما أن يعودا في وقت آخر من ذلك النهار · وفي المساء تم اللقاء · دار الحديث أولا عن ماضى گولد بصورة عامة ، ثم عرضت عليه صورة للدكتور فوخ ؛ فقطب جبينه لحظة ، ثم أدهش الرجلين بأن صرخ : هذه صورة غير اعتيادية للغاية ··· إنه ذلك الجاسوس الانكليزى !

وكان موقفا حرجا ، فراح الرجلان يتكلمان بدقة بالغة : هل سبق له أن عرف فوخ ؟ كلا ، بالتأكيد · هل سبق له أن رأى فوخ ؟ كلا ، البتة · لقد عرف الصورة لأنها نشرت في الصحف · وراح گولد يسرد بكل رحابة تفاصيل حياته وعمله ــ وكلها مما كان يعرفه المكتب بدقة · فسئل أين كان يذهب في العطلات والاجازات الخاصة ، في سنتى ١٩٤٤ و١٩٤٥ ؟ فأكد گولد أنه لم يذهب في حياته اطلاقا الى غرب نهر المسيسيبى ، وانه لم يقم بأية رحلة الى انكلترا الجديدة · وكان لهذين الانكارين مغزاهما ؛ لأن الذى لا ريب فيه الآن هو ان گولد قد ذهب بالفعل الى كل من كمبرج ونيومكسيكو · وغيّر الرجلان مجرى الحديث · ماعلمه حول ابراهام بروثمن ؟ أجل ، لقد كانا صديقين حميمين ؛ وقد سبق ان ادلى الى المكتب بما يعرف عنه في سنة ١٩٤٧ ؛ ولم يعد يعمل له في سنة ١٩٤٨ ، لأن المشروع الذى كانا مرتبطين به آل الى حالة سيئة · ولم يكن هو

يتقاضى أجرا ، فترك العمل • وهو يفضل كثيرا عمله العالى في مستشفى فيلاديلفيا العام • ثم ألقي عليه السؤال الهام: لماذا اتخذ اسم فرانك كيلر ، حين قدم الى صديق لابراهام بروثمن ؟ ان الرجال المستقيمين لا يحتاجون الى ان يتواروا خلف أسماء مستعارة ! وكان جوابه حاضرا ؛ قال : بينما كنت ما أزال مستخدما في شركة سكر بنسلفانيا ، رحت في الوقت نفسه ، أقوم بتجارب مختبرية لحساب بروثمن : فلم أشأ أن يعلم رئيسي في فيلاديلفيا بهذه الممارسة غير الاخلاقية ـ كان دفاعه ركيكا وفاضحا ، فراح الاضطراب يبدو من عينيه • ثم سئل عن تناقض آخر : لماذا أخبر ميريام موسكوفتز ، سكرتيرة بروثمن ، بأنه متزوج ، وأب لطفلين، وبأن أخاه من جنود المظلات وقد قتل في أثناء الخدمة ؟ فأنكر أنه قد قال مثل هذا الكلام • ولكن المحققين كانا على بينة من الامر ! ثم عرضا عليه تصاوير لآل هاينمن ، فهل يستطيع تشخيصهما ؟ كلا ، بالتأكيد • ثم راح يتساءل هو : من هما هذا الشخصان ، انه لم يرهما في حياته على الاطلاق ! ثم جاء المزيد من الحرج ـ فهل يسمح بالتقاط صور متحركة له ؟ بالطبع ، ولم لا ؟ فليأخذا اللقطات التى يشاءان • وانهمك الرجلان في التقاط هذه الصور ، وكان مكتب التحقيق الفدرالي قد حصل من قبل على صور متحركة له بدون علمه ، ثم أرسلت ليطلع عليها فوخ •

وفي خلال الايام القليلة التالية ، جرت مقابلات عدة مع هاري كولد • وكان دائما مؤدبا ومعوانا ؛ ولكنه ظل يقول أن ليس لديه الكثير مما يدلي به • فلقد كانت حياته عادية،

كحيــاة أي مــواطن ـ فلا شهرة ، ولا رواتــب عاليــة ، ولا اسرار تكتنف الاماكن التى اشتغل فيها · ولكى يثبت بشكل جازم ان ليس لديــه مايخفيه ، فقـد وقع موافقـة تحريريــة على ان يقــوم مكتب التحقيق الفدرالى بتفتيش جميع غرفه ·

وكان يقيــم في مسكن مريح ذي طـابقين ، في القســم الشمالى الشرقى من فيلادليفيا · وقام بالتفتيش رجلان من المكتب بحضور ُولد في الثانى والعشرين من مايس ·وكانا كلما عثرا على شيء هــام ، قدم گولد الايضــاح الــكافي بشأنه ـ كان شديد الثقة بنفسه ، ولديه جواب لكل سؤال تقريبا ! وعلى حين غرة التقط أحد الرجلين من وراء دولاب للكتب ، نشــرة صــفراء عنوانهــا « سانتا فيه ، المدينة العاصمة » · وهى من اصدار غرفة التجارة ، وفيها خارطة مفصلة لجميع الشوارع ، والبنايات العــامة ، والفنادق ، وبكل صمت وضعت النشرة بين يديــه ؛ فومضت عينــاه ومضة الذعر ، وإنفرج فمه ، وبدا عليــه في تلك اللحظة كأنه يتجمد ! لقد حصل على الخارطة من متحف سانتافيه ، لكى يجد طريقــه الى الجسر دون ان يوجــه الاسئلة ؛ فكان العثور عليها من قبل رجال المكتب ، صدمة شديدة جردته من ذلك الهدوء المعتاد من غشاش محترف · وسأل في النهاية بصوت يشبه صوت السائر في نومــه : من أين جاء هــذا الشيء ؟! فقال أحد رجلينا : لقد زعمت أنك لم تذهب الى غرب المسيسيبي ··· أم هل قد ذهبت ؟ وبدا السؤال كأنه ينطـّ بقوة لا تقاوم فوق ذهن گولد المشدوه ، الرجل الذى

ظل مدة سنين يعيش خلف واجهة من الاكاذيب والتضليل · كانت هناك فترة صمت ··· فقال الرجل الآخر : أتريد ياسيد گولد أن تقول كل الحقيقة حول هذه الخارطة ؟ فانفجر گولد بغتة وبدون تفكير : أنا ··· أنا الرجل الذى كان كلاوس فوخ يعطيه المعلومات ·

وبهذه الكلمات أصبح « الظل الغامض » الذى كنا نبحث عنه ، كائنا ، حيا ، يتنفس ، اسمه هارى گولد · وبمحض الصدفة ، تلقى مكتبنا في واشنطن بعد أقل من ساعة من هذا الاعتراف ، برقية من لندن تقول ان الدكتور فوخ بعد رؤيته للافلام الملتقطة خلسة ، عرف في هارى گولد شريكه الامريكى · وبعد يومين رأى الافلام التى التقطت بموافقة گولد ، فكان في هذه المرة جازما بأنه هو ذلك الشريك ·

وروى گولد في النهاية كل الحكاية ؛ راح يفتش في ذاكرته عن الاسماء ، والتواريخ ، والوقائع ، فيسرد كل ذلك لمكتب التحقيق الفدرالى · وكانت النتيجة ثروة من المعلومات ذات قيمة عظيمة في ذلك التحقيق ، وفي التحقيقات التى سوف تجرى في المستقبل · وكان هذا هو العوض الوحيد الذى قدمه لقاء ترديه في «القضية الحمراء» ·

★ ★ ★

في التاسع من كانون الاول سنة ١٩٥٠ ، وقف گولد في قفص الاتهام ، في المحكمة الفدرالية في فيلاديلفيا ؛ وأقر أمام القاضى ماك گرنري بـ « غلطته النظيفة » ، وقال : كل الكلام تافه وفج ، ذلك الذى يعبر عن عمق تأنيب

الضمير الذى أشعر بــه ، وعن شناعته · ثم شكر جميــع الجهات المسؤولة عن حسن المعاملة التى لقيها ·

ونطق القاضى بالحكم : ثلاثون سنة ·

فلم يفعل گولد أكثر من ان هز رأسه ، ثم ســار بــه حجّاب المحكمة الى خارج القاعة ·

لقد وُعد على خدماته الممتازة ، بوسام النجمة الحمراء؛ فلم يتلقَ سوى أمر مكتوب على الورق · ومن مقتضى ذلك الوسام ، ركوب الباصات في موسكو مجانا ··· ولكن القدر حرمه حتى من ذلك الامتياز الزهيد !

اختفاء العالم الذرّى

في نشرة « أعمال الجمعية اللندنية » الصادرة في نيسان ١٩٣٥ ، ظهرت مقالة بعنوان « النشاط الاشعاعى الصناعى الناشىء عن القصف النيوترونى » • وقد اشتهرت هذه المقالة فيما بعد ، لما تنبأت به من التطور الذرّى اللاحق • والذين كتبوها هم ستة علماء من جامعة روما ، أحدهم أستاذ الفيزياء برونو پونتيكورفو •

وبينا كان برونو يرتقى الدرجة الاولى في سلم الشهرة العلمية ، إستفحل أمر موسيلينى : فضاق الشاب ذرعا بالاجواء السائدة في ايطاليا ،وحصل في سنة ١٩٣٦ على زمالة دراسية تحت اشراف العلامة فريدريك جوليو - كورى ، الفيزيائى الشيوعى في پاريس • ثم جُدّدت الزمالة لسنة ثانية وثالثة ، مع مساعدة مالية من مصادر فرنسية • وفي خلال هذه الفترة ، التقى پونتيكورفو خليطا دوليا من اليساريين والمناوئين للفاشستية ؛ وكان هذان الفريقان يتباريان ، آنئذ ، في قذف أقبح الاهانات على هتلر وموسيليني • ثم قامت الحرب ؛ فاتخذ شيوعيو ذلك الخليط الدولى موقفا فاترا من المجهود الحربى للحلفاء ، أو راحوا بالفعل يعرضون الدفاع الفرنسى للاعمال التخريبية •

لقد حلت صورة ستالين في أذهان اولئك العلماء الشيوعيين محل صور آبائهم ، واستبدلوا « الستالينية » بدينهم الاصلى ، وراحوا يختلقون المبررات لما كان يمارسه

حزبهم من « التكتيك » الخدّاع . ثم صدرت اليهم التعليمات بأن يواصلوا دراساتهم العلمية في مكان آخر حسبما يرتبونه هم أو الحزب ؛ استعدادا لذلك اليوم الذى يتولون فيه الزعامة العلمية في اوطانهم الاصلية .

وكان برونو قد تعرف على فتاة سويدية تدعى ماريانا نوردبلوم ؛ وتطور التعارف الى الحب ثم الى الزواج . ورزقا طفلا أسمته أمه جلّ .

وفي حزيران ١٩٤٠ جعلت القوات النازية تدنو من پاريس ؛ فطفق المناوئون لها يفرّون الى الجهات الاربع وكان من بين أولئك الفارين آل پونتيكورڤو . غادروا باريس على دراجة الى بوردو ؛ وفي أوائل السنة التالية هاجروا الى الولايات المتحدة . وكان أول عمل للعالم الايطالى في أمريكا يتعلق بالتصوير الشعاعى لآبار البترول، لدى احدى الشركات في أوكلاهوما . وكان من مميزات القدرة الفنية لهذا الرجل ، أن طوّر في وقت قصير طريقة جديدة للقيام بهذه المهمة .

ثم قرر ان يصبح مواطنا أمريكيا ، فاتخذ الخطوات الاولى لهذا الغرض ؛ ولكى يحمى حقه في التجنس استمر يدفع الضرائب الى الجهة المختصة في أمريكا ، حتى بعد انتقاله الى كندا .

وفي خريف ١٩٤٢ عُرض على پونتيكورڤو أن ينضمّ الى جماعة من العلماء البريطانيين في الفيزياء النووية متوجهين الى الولايات المتحدة ، للاشتراك في بحوث للحلفاء

حول مشكلة خطيرة ذات قيمة عسكرية . وقد قبل هذا العرض على الفور . وتقول المصادر الكندية ان العلماء الامريكيين هم الذين بادروا الى ترشيحه للقيام بدور في هذا الجهد المشترك . وقد عمل في نيويورك لفترة وجيزة ، ثم انتقل الى مونتريال لينضم الى فريق الذرة الذى كان يؤلف برئاسة الدكتور أج. أج. هولبان . وفي كندا زار مع مجموعة من العلماء البريطانيين مشروع التعدين فيشيكاغو؛ وعقدوا هناك مداولات سرّية مع علماء الفيزياءالامريكيين . وبعد ذلك انصرف الى اجراء التجارب لانشاء مفاعل ذرّى بالقرب من بيتاواوا في أونتاربو . وكان هذا المفاعل هو الذى أثار اهتمام العقيد زابوتين وغيره من الوكلاء الروس الذين كانوا يمارسون نشاطهم باشراف السفارة السوفياتية في أوتاوا خلال الحرب .

وعلى الرغم من سجلّه السابق في اوربا ، لم يُحم شك خطير حول الرجل خلال الحرب . وفي أثناء هذه الفترة وُلد له إبنان : تيرو في سنة ١٩٤٤ ، وأنطونيو في سنة ١٩٤٥ . ومن الحق أن پونتيكورڤو كان رجل أسرة ، وأبا شغوفا بأهله . وكان كذلك على النقيض من مَىّ وفوخ المتحفظين الخجولين ــ ميّالا للحياة الاجتماعية ، والضحك والحبور ، والرياضة في الهواء الطلق . والذين عرفوه في هذا العهد ، لا يذكرون أية مسحة للشيوعية في مطالعاته وأحاديثه وتصرفاته .

ويبدو أن الرجل كان لما يزل يتطلع لأن يكون مواطنا أمريكيا . ففى سنة ١٩٤٦ قام بزيارة للمجمّع الكهربائى المركزى في شينكتدى ارادة الحصول على عمل هناك ، فلم

يُوفَّق . وعاد الى كندا والى عمله السابق في المفاعل الذرى، الذى صار يشرف عليه الآن قسم الطاقة الذرية التابع لوزارة التموين البريطانية .

وفي أواخر سنة ١٩٤٨ مُنح العالم الايطالى اللاجىء الجنسية البريطانية ، لخدماته القيّمة للمجهود الحربى . ثم عبر المحيط في أوائل السنة التالية الى انكلترا ، ليتقاضى خمسة آلاف وخمسمائة دولار في السنة كمستشار أول في قسم الفيزياء النووية في هارويل . وهنا تعرف على عالم الذرة فوخ بحكم الزمالة ، وان لم تتوطد بينهما أواصر الصداقة .

وفي سنة ١٩٥٠ انطلق سكنر نائب مدير منشأة هارديل الى ليڤرپول لتوسيع برنامجها العلمى ، وكان يبحث عن مساعدين لامعين . فوقع اختياره على پونتيكورڤو ليصبح أستاذا للفيزياء التجريبية في جامعة ليڤرپول ، لمؤهلاته العلمية الرفيعة ، لا سيما في ميدان الاشعة الكونية . وقد صرح هذا بأنه قد قبل الوظيفة لأنها تتيح له فرصة أكبر لاجراء البحوث ، لا لأنها ترفع من مكانته وتزيد في راتبه .

وقد يكون في هذا التصريح صادقا ، ذلك لأنه لو كان يحلم بالثروة في هذه الفترة ، فمسرح ذلك الولايات المتحدة لا انكلترا . فلقد سبق في سنة ١٩٣٥ أن طُلب نيابة عن العلماء الايطاليين الستة من جامعة روما ـ وهو من بينهم ـ تسجيل براءة بمقالتهم التى أتينا على ذكرها في أول هذا الفصل في الولايات المتحدة ، ومُنحت هذه البراءة بالفعل .

ثم أقيمت بعدئذ ، باسمهم كذلك ، دعوى تعويض يطلبون فيها مبلغ عشرة ملايين دولار من حكومة الولايات المتحدة ، لانتهاكها مقتضيات تلك البراءة أثناء الحرب وبعدها · وكانت حصة پونتيكورڤو من هذا التعويض في حالة كسب الدعوى مليونا ونصفا من الدولارات · ولكن النظر فيها قد علّق بالنظر لاختفاء الرجل !

وهناك عدة جوانب محيّرة في اختفائه ؛ اذ لو كانت تحوم حوله أية شبهة ، فلماذا سُمح له بمغادرة البلاد ؟ الظاهر أن جواب ذلك هو أن البريطانيين لا يقيدون من انتقال رعاياهم الاّ اذا كانوا موقوفين بالفعل · وفي احدى مداولات مجلس العموم في تشرين الاول ١٩٥٠ أشار شتراوس وزير التموين البريطاني الى أن تشديد اجراءات الامن في هارويل ، قد لعبت دورا في قرار پونتيكورڤو الذهاب الى ليڤرپول · وأضاف فيما يتعلق برحلته الى القارة : « بما أنه كان يحمل جواز سفر بريطانيا ، فلم تكن هناك من وسيلة لحجزه في هذه البلاد » ·

هل كان البريطانيون يراقبون آل پونتيكورڤو في القارة الاوربية ؟ ان التأخر في معرفة ماحدث لهذا العالم يوحى بعكس ذلك · وما من مرية في أن خروج آل پونتيكورڤو من انكلترا قد جرى بصورة اعتيادية لا عجله فيه ولا شبهة حوله : لقد استقلّوا سيارتهم الى فرنسا ، ثم هبطوا جنوبا الى ايطاليا ، لزيارة احدى شقيقات برونو التى تزوجت من موظف شيوعى هام في ايطاليا · وقد تبين فيما بعد أن

الشيوعى الايطالى أميليو سيرينى هو ابن عم برونو : وقد قيل كذلك أن أحد اخوة الرجل ـ على الاقل ـ كان شيوعيا ذا مكانة ٠

ولكن يستربرونو هربه ، بعث برسالة الى هارويل في آخر يوم من اجازته ، يذكر فيها أن هناك عطبا في سيارته ـ وهذا صحيح الى حد ما ـ وأنه سوف يعود في الوقت المحدد لحضور مؤتمر علمى هام في بريطانيا ، وهذا غير صحيح كما تبين فيما بعد ٠ والغريب أنه في الوقت نفسه قد تسلم رسالة من هارويل تقترح عليه ان يحضر مؤتمرا أوربيا يعقد في سويسرا حول الاشعة الكونية ، وذلك في طريقه الى وطنه ٠ فاذا كان القصد من هذه الرسالة اظهار الثقة به لكيلا يتخذ الحذر، فان هذه الخطة قد أخفقت؛ ذلك لأن آل پونتيكورڤو كانوا قد انطلقوا في طريقهم الى روسيا في ذلك اليوم بالذات!

فمن روما استقلوا الطائرة الى كوپنهاكن ، ثم سافروا بالقطار السريع الى ستوكهولم ٠ وهنا باتوا في السفارة السوفياتية ٠ ولم يقوموا بزيارة والدى السيدة پونتيكورڤو في الصباح التالى ، بل لم يتصلوا بها هاتفيا ، وهى تسكن بالقرب من ستوكهولم ٠ وفي الساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح ، وصلوا في سيارة عائدة للسفارة السوفياتية الى مطار بروما في ستوكهولم مع جميع حقائبهم الضخمة المفعمة!

وفي أثناء الرحلة الى هلسنكى ، تجاذب پونتيكورڤو أطراف الحديث مع جوهان ڤيرولينن وزير الداخلية الفنلندى، الذى أتفق أن كان على الطائرة ذاتها ٠ وعند الوصول سلم

جواز سفره البريطاني الى الوزير ، قائلا انه لم يعد في حاجة الى استخدامه ! وقد لاحظت زوجة الوزير على السيدة پونتيكورڤو أنها كانت « ظاهرة العصبيّة ، شاحبة، منهكة » . وقد ذكر أيزيكو آلتاڤلاّ مراسل صحيفة Il Tempo الايطالية الذي كان على متن الطائرة أيضا ، أن آل پونتيكورڤو لم يستقلوا حافلة الخطوط الجوية مع سائر المسافرين من المطار الى المدينة ، بل انتظروا في المطار حتى وافتهم سيارة من المفوضية السوفياتية نقلتهم مع أمتعتهم الثمينة الى الميناء مباشرة! وفي الميناء كانت الباخرة السوفياتية (بايلوستروك) في انتظارهم وهي على أهبة الاقلاع . فما كاد العالم وأسرته يصبحون على ظهرها ، حتى قطعت الباخرة كل صلة لها بالبرّ ، وراحت تمخر عباب اليمّ متوجهة الى لينينغراد . وفي الخامس من أيلول كانت الباخرة في الاتحاد السوفياتي .

وحين ذاعت قصة پونتيكورڤو في روما في العشرين من تشرين الاول ، انطلقت تكهّنات ترجم بالغيب : فمن قائل ان العالم قد اختطفه الروس ؛ ومن قائل انه مجنون ؛ وذهب قليل الى أنه قد أغوي بعرض كاذب ، متوهما أنه يستطيع أن يكون وسيطا بين علماء الغرب والشرق . ولكن ليس هناك ما يدعم أيّا من هذه المزاعم ؛ بل هناك حقيقة ثابتة هي أن پونتيكورڤو قد سلك طريق الهرب الذي يسلكه وكلاء الروس في بريطانيا ، وذلك بعد أن افتضح أمر وكيل آخر هام من علماء الذرة في هارويل ، وأصبح معرّضا للخطر .

ويستفاد من تقارير المخابرات السويدية ، أن شيوعيا أمريكيا يدعى ڤيكتور ريزل قد صرح في السادس عشر من

نيسان ١٩٥١ ، بأن المهمة التى كلف بها العالم البريطانى الجنسية في روسيا ، هى انجاز تطوير نظام للدفاع الجوى عند حلول حزيران ١٩٥٢ ، يعتمد على الاشعة الكونية · ويمكن بواسطته تدمير قدرة أمريكا على ارسال القنابل الذرية والهايدروجينية · وقد أريد منه كذلك المساعدة في تسريع انتاج القنابل الذرية . والعمل على صنع صاروخ دقيق التوجيه ، ينطلق بين القارات المتنائية ·

وفي الرابع والعشرين من أيلول، ذكر كينيث دىكورسي محرر الـ (اينتيليجنس دايجست) في لندن ، أن الروس يتوقعون تفجير قنبلة هايدروجينية بارشاد پونتيكورڤو ، وذلك عند حلول حزيران ١٩٥٢ · وقال أيضا ان العالم الايطالى الاصل، كان يعمل في تلك الفترة في مركز رئيس لابحاث القنبلة الهايدروجينية ، يقع في أقصى الجنوب من روسيا الآسيوية · ولم يكن كورسي هذا من الذين يفهمون في شؤون الذرة : ولكن معلوماته قد أستقيت ـ على ما يزعم ـ من أشخاص مناوئين للسوفيات ، وقادرين على التوصل الى معلومات دقيقة مبوّبة ·

وفي الحادى عشر من تشرين الثانى ١٩٥١ ، صرّح في القاهرة عيسى يوسف بك ألپتكن السكرتير العام السابق لمقاطعة سنكيانك في الصين ··· صرح بأن پونتيكورڤو كان يعمل في معقل ذرّى ضخم في سنكيانك ، بالقرب من مدينة حديثة على هيئة الاخطبوط ، ليست بالبعيدة من العاصمة يورومجى · ويسند عيسى بك معلوماته هذه الى لاجئين

قادمين من سنكيانك ، والى اذاعات سوفياتية من محطة اذاعة تركستان . وبعد يومين أو ثلاثة ، ذكرت تقارير (صحافة اتحاد الصين) من تيهوكو ، ان وانك ـ وين ـ هاو الجيولوجي المعروف ورئيس الوزراء الاقليمي السابق ، قد انضم الى پونتيكورڤو في أعمال القنبلة الهايدروجينية .

ويميل العلماء الامريكيون الى عدم تصديق هذه الاشاعات القادمة من سنكيانك : لأن مصادرها غير موثوقة الى درجة كافية ، ولأن مصانع الطاقة الذرية تحتاج الى اتصالات بمصادر التجهيزات والمكائن ، والى مواصلات متطورة لا تتوفر في سنكيانك . وهم يميلون الى تصديق رواية فيكتور ريزل لأنها أقرب الى الواقع : وان كانوا يفتقدون اي تأييد للموعد النهائي المحدد بشهر حزيران ١٩٥٢ ، المتعلق بتطوير نظام الدفاع الجوي السوفياتي ، أو أي موعد نهائي آخر له ، قد وصل الى زعماء الشؤون الذرية في الولايات المتحدة .

وعند نهاية تشرين الثاني ١٩٥١ ، نسبت صحيفتان في روما ، هما : Momento Sera, Il Tempo ، الى مصادر روسية في ستوكهولم ، خبرا مفاده أن پونتيكورڤو قد سجن في روسيا ، للظن أنه جاسوس أمريكي في شؤون الذرة . وتذهب حكايات هذا الخبر المثيرة ، الى أن ستالين قد استنتج أن هذا الجاسوس كان يوصل الى الرئيس ترومان معلومات حول التفجيرات الذرية الروسية . ولكن البريطانيين لم يابهوا لهذه الحكايات ؛ وعلـّق عليها أحد المسؤولين في وزارة التموين بلندن بقوله : « انها مضلـّلة ... فليس من المتوقع

أن يتسرب مثـل هذا الخبر ـ اذا ماكان صحيحا ـ من خلال الستار الحديدى » • ثم ان محطات الانصات الغربية الموثوقة في فنلندة ، لم تلتقط أى خبر عن سجن پونتيكورڤو • واكثر من ذلك ، ان أول تصريح للرئيس ترومـان حـول التفجير النووى السوفياتى ، قد صدر في الثالث والعشرين من ايلول سـنة ١٩٤٩ ؛ أى قبـل أن يغادر پونتيكورڤو انكلترا بسنة كاملة • أما التصريحان الثانى والثالث حول ذات الموضوع . فقد صدرا عن البيت الابيض في الثالث والتاسع والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٥٠ • وهذا لا يدع للرجل ، بعد وصوله الى الاتحـاد السوفياتى . مهلـة للتجسـس أكثر من شهر واحد !

ومن المعروف ان المبالغة تطغى على أقاصيص التجسس وقد تطغى أحيـانا حتى على حقـائق التجسس • وليس من العسير أن نجـد تفسيرا أو سندا لكل هـذه الاشاعات التى دارت حول پونتيكورڤو •

ففى روسيا يوجد شك رسمى في كل رجل سبق ان كان ذا مكانـة في الاوساط الرأسمالية ؛ وهذا الشك قـد يكون أحيانا من الشدة والحساسية بحيث يرقى الى مستوى الهوس! وهناك أيضا تلك القيود الصارمة التى لا يصبر عليها العالم الممتاز • فليس من المستبعد ان يؤدى ذلـك الشك من جهة ، وضيق الرجل بالقيود المفروضة عليه من جهة أخرى ، الى افساد العلاقة بينه وبين السلطات هناك . ثم الى ايجاد أية تعلّة لسجنه ، على الرغم من خدماته الماضية •

ويتساءل بعض المختصين في شؤون التجسس في الولايات المتحدة ، عما اذا كانت هذه الاشاعات مقصودة كجهد يرمى الى حث الاتحاد السوفياتى على كشف مكان الرجل ، أو نشاطاته ؛ فاذا كان هذا حقا ، فان هذا الجهد قد ذهب هباء، فليس هناك من ثغرة يتركها الكريملن لتتسرب منها الاسرار في الشؤون العلمية ، وبخاصة الذرية ٠

هــرب موظف الشـفرة

حين بدأت السـيدة گوزنكو تبكي بين يدى لاسـيدة جوبارن ، الموظفة في وزارة العدل الكندية ، أدركت هذه ماذا يعنى أن تعاد هذه المرأة وزوجها وطفلهما الى السفارة التى يعودون اليها ·

فتشاورت مع المدعى العام ، ثم راحت تجرى سلسلة من الاتصالات الهاتفية ، استمرت الى مابعد الظهر · بيد أنهـا كانت تسـمع جوابا يكـاد يكون واحدا ـ ان الوثائق التى يحملها گزنكو من الخطورة والاهمية ؛ بحيث تجعل التصرف بخصوصها مستعصيا الا على المقامات العليا ·

ثم أوشك وقت الدوام على الانتهاء ، وجعلت الدوائر الرسمية تغلق أبوابها ؛ فاضطرت السيدة جوبارن لأن تقر مع الاسف الشديد باخفاقها ·

فقال السيد گوزنكو يشكرهـا : « لقد كنت في غـاية اللطف ··· والشخص الوحيد الذى قبل ان يسمع لنا ··· اننا لن ننساك » · ثم غادر مع زوجته وطفله بناية وزارة العـــدل ·

وكان يعلم أن غيابه لتلك الفترة ، لا بد قد أثار الشك والخوف في سفارته ، فقرر أن يعود الى منزلـه في سمرست ستريت ·

تسلـّلوا من المدخل الخلفي ، ولما صاروا في شقتهم خطا گوزنكو نحو النافذة · ومن مكمنه في الظلّ أرسل أنظاره الى

الحديقة العامة في الجانب الآخر من الشارع ، فرأى ما كان يخشاه ـ رجلين يجلسان على مصطبة ، وقد دسّا أيديهما في جيوبهما ، وراحا يتطلعان الى نوافذ شقته · وبينا كان يرقبهما ، دنا كل منهما برأسه نحو الآخر ، وجعلا يتشاوران· ثم نهض أحدهما ، فعبر الشارع · وتراجع گوزنكو من مكمنه ، فأشار بلزوم السكون · ثم سمع وقع أقدام في الممشى ، وبعد لحظة نُقر على الباب ·

وجاء صوت لافرينتيف أحد رجال السفارة السوفياتية يقول :

ـ گوزنكو ··· اِفتح الباب ·

فحبس گوزنكو وزوجه أنفاسهما ، وجرى الطفل أندريه نحو لعبة على الارض ، فعثر فهوى لدى الباب · وحمله گوزنكو فمضى الى المطبخ ، ثم خرج من باب يؤدى الى الشرفة الخلفية التى تشترك فيها الشقة الخامسة من الطابق الثانى · وفي هذه الشرفة كان يجلس عريف في القوة الجوية الكندية يدخن غليونا ويقرأ جريدة المساء ، والى جانبه زوجته منهمكة في الخياطة ·

فقاطعهما گوزنكو قائلا :

ـ عفوا ··· هل لي أن أتكلم معكما ؟

فتطلع اليه العريف في دهشة ، فرأى في مظهره ما ينم عن أن هذه ليست زيارة عادية · فقال :

ـ بالتأكيد أيها الرجل ··· ماذا هناك ؟

ـ أرجو أن تأخذا طفلي لديكما هذه الليلة ...

فقد يحدث شيىء لي ولزوجتي !

ـ وماذا سيحدث ؟

فأجاب باقتضاب :

ـ قد نقتل !

فاقتاده العريف الى داخل شقته ، فسمع منه التفاصيل . وبعد أن تشاور مع زوجته قليلا ، قرّرا ألاّ يتركاه وحيدا في هذه المحنة .

وفي الوقت نفسه كان لا بد ان استولت الدهشة على لافرينتيف ، فلقد سمع اصوات حركات داخل الشقة .ولكن ما من أحد ردّ على نقرته . ومع ذلك فليس بين التعليمات التى أعطيت له ان يقتحم الابواب : بل كل ما أمر به هو أن يراقب گوزنكو ، فيخبر السفارة اذا رآه أو رأى أسرته، والوقت الذى رآهم فيه . وعلى ذلك ترك المكان فهبط الى الطابق الاسفل ، وراح يحوم حول البناية ليرى ما اذا كان گوزنكو قد غادرها من المدخل الخلفي .

وكان العريف وگوزنكو واقفين في الشرفة ، حين رأيا لافرينتيف ماضيا في الزقاق تحتهما . فشحب لون گوزنكو وهمس قائلا :

ـ هذا هو ... فمن الافضل ان تأخذا زوجتي الــى شقتكما كذلك .

وبينا كانا يتحدثان ، ظهرت امرأة عليها مظهر الامومة ، تسكن في الشقة السادسة في الطابق نفسه . واذ سمعت القصة قالت :

ـ اني وحيدة في شقتي ... ولدي متسع لجميعكم . ويسعدني أن أنزلكم لديّ طالما احتجتم الى ذلك .

قال العريف :

ـ هذا يسوّي الامر ... اذهبوا أنتم معها ، أما أنا فسأمضي الى الشرطة ... ولن يجرأ هؤلاء على اقتحام منزل مواطن كندي .

كان هذا في الساعة السابعة ، وبعد نصف ساعة حضر الشرطيان توم وولش وجي . يي . مكلّوك . فأخبرهما كوزنكو بأنه موظف الشفرة في السفارة السوفياتية ، وأن لديه معلومات ذات أهمية عظمى للحكومة الكندية ، وهو يطلب الحماية . واستمع اليه الشرطيان دون ان يلتزما بشيء ؛ ولكنهما طمأناه بأنهما سيراقبان البناية بأسرها ، وقالا له :

ـ أنرْ ضوء الحمام ... ونحن نستطيع أن نراه من الحديقة العامة ، فاذا احتجت الينا اطفئه .

وفي الشقة السادسة كانت السيدة كوزنكو تهيىء طفلها للنوم ؛ أما زوجها فقد جلس في حجرة الاستقبال وهو يصيخ السمع لصوت حركة في الممشى . فلما حلّت الساعة العاشرة راحت مضيفته تحثه على أن يأخذ قسطا من النوم ، بيد أنه

شكرها وقال انه من الانسب أن يبقى يقظا ، لانه يعرف ان شيئا ما سيحدث في تلك الليلة ، فلا بد من ان هؤلاء الناس يخططون للقيام بغارة • وكانت كل ساعة تمر تزيده يقظة ؛ وجعل يتصور بوضوح ماذا كان يجري داخل السفارة ـ جميع الانوار مضاءة ••• غرف الشفرة تسودها الفوضى ••• الموظفون بين الاضابير يبحثون عما فقد منها •••

وكان على حق • ففى الساعة الحادية عشرة خرج من السفارة السوفياتية أربعة رجال ـ ڤيتالي جي • پاڤلوف السكرتير الثانى والقنصل والرئيس السرى لدائرة المخابرات في كندا ••• العقيد روگوف ، الملحق الجوى العسكرى من القوة الجوية للجيش الاحمر ••• الملازم أنجيلوف ••• ألكسندر فارافوتنوف ، موظف الشفرة في الغرفة المجاورة لغرفة گوزنكو ، الذى تخصص في مراسلات المخابرات • وحين عبروا الرصيف نحو سيارتهم ، كان منظرهم ينم عن انهم حراس ينقصهم السجين في وسطهم •

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف كانوا أمام البناية ٥١١ في سمرست ستريت ، فتوجهوا على الفور الى شقة گوزنكو ، وطرقوا الباب • وحسب العريف في الشقة الخامسة أن الشرطة قد عادوا للمزيد من التحقيق ، ففتح بابه ونظر الى الخارج • فلما وقعت عيناه على ثلاثة رجال في ملابس مدنية ، وآخر في بزة عسكرية مع شعار النجمة الحمراء ، أدرك خطأه وحاول ان يغلق الباب • ولكن أحد الرجال وثب اليه فسأل :

ـ أين گوزنكو ؟

فأرسل اليه العريف نظـرة حائرة ، ثم صفق البـاب في وجهه ٠

وجرت مداولة بين الاربعة ، ثم هبطوا السلم ٠ ولكنهم مالبثوا أن عادوا مسرعين ٠ دقوا على باب الشقة الرابعة ، ثم أسندوا أكتافهم اليه فدفعوه بكل قوتهم ، فانخلع القفل وصدرت عنه طقـة شديدة ٠

وكان گوزنكو في الشـقة السادسـة ، يرقـب هـذه الاجراءات من ثقب المفتـاح ٠ فنهض وجرى الى الحمـام فضغط على زر الضوء ٠ ومـا كاد الشرطيا ن في الحديقة العامة يلحظان هذه الاشارة ، حتى هُرعا الى الشقة يخطفان درجات السلم خطفا ٠ فلما صارا عند الشقة الرابعة ، وجدا جميـع المصابيح مضاءة ، وجميـع الابواب مفتـحة ٠ وكان پاڤلوف عند أحدها ، والعقيد رو نوف عند الآخر ٠

وسأل وولش :

ـ يا هؤلاء ٠٠٠ ماذا تصنعون هنا ؟

فأشار پاڤلوف الى رفاقه بالتزام الهدوء : ثـم أخرج بطاقة تثبت أنه السكرتير الثاني في السفارة السوفياتية ٠ وقال ان جميع الحاضرين هم من موظفى السفارة ، ويبحثون عن أوراق رسمية معيـنة ٠ ثم أردف يقول :

ـ إن صاحب هذه الشقة قد ترك المدينة ، ولكنه قـد أذن لنا بدخولها ، والحصول على مانحتاج منها !

فأشار وولش الى القفل المكسور ثم قال :

ـ اذا كنتم قد أذن لكم بدخول الشقة ، فلقد اخترتم طريقة مضحكة لدخولها ٠

والتقط جزءا من القفل سقط الى الارض ثم قال :

ـ هذا لا يدل على انه قد فتح بمفتاح ، بل أنكم قد استخدمتم القوة للدخول ٠

فهز پاڤلوف كتفيه وأجاب :

ـ لقد فقدنا المفتاح ٠٠٠ وهنا شيء يجب ان نأخذه ٠٠٠ ثم ان هذا المكان ملك سوفياتي ، نصنع فيه ما نشاء ٠٠٠ فهلاّ انصرفتما من فضلكما ٠

فهز الشرطيان رأسيهما وأجابا :

ـ لن ننصرف حتى يحضر أحد المفتشين ٠

واتصل وولش بالمقر التابع له ، فوصل المفتش دنكان ماكدونالد في خلال ربع ساعة ٠ وبعد ان فهم الوضع ، طلب الى پاڤلوف وأصحابه أن يرافقاه الى مركز الشرطة ٠ وجادل پاڤلوف بأنه هو ورفاقه والشقة يتمتعون بالحصانة الدبلوماسية ، ثم رفض أن يبرح المكان ٠ وأدرك المفتش أن الموقف قد صار حرجا ، دقيقا ؛ فطلب الى الشرطيين أن يمكثا في الشقة ريثما يعود الى مقره للبت في هذه الحالة الدبلوماسية ٠

وبعد انصرافه تشاور پاڤلوف مع جماعته : ثم قاموا بالمزيد من التحرى في أنحاء الشقة ، دون ان يحاول الشرطيان منعهم ٠ وبعد ان فرغوا من ذلك ، عادوا الى السفارة ؛ ولم يكشف النقاب عما جرى هناك ٠

وبات آل گوزنكو تلك الليلة في الشقة السادسة ، تحت حماية الشرطة • فلما كان الفجر ، أقبل على الشقة الرابعة زائر جديد ! دق الباب أولا ، ثم حاول أن يقحمه ؛ ولكنه لم يفلح في محاولته،لأن الشرطة كانت قد ضاعفت الاقفال؛ فعاد من حيث أتى •

وبعيد طلوع النهار ، في السابع من ايلول ، نقل آل گوزنكو وما لديهم من وثائق ، الى مقر الشرطة الكندية • ولما كان رئيس الوزراء البريطاني ، سبق أن رفض طلب گوزنكو حول اللجوء السياسي ، فقد تعيّن أن ترفع اليه تفاصيل الأحداث في الليلة الماضية ، والحماية التي وفرتها الشرطة له •

وللمرة الثانية ، أكدّ رئيس الوزراء على ضرورة المسير في حذر • وفي الثامن عشر من مارت ستة ١٩٤٦ ، جرت في مجلس العموم ، مداولات حول هذه القضية • فصرح رئيس الوزراء بما يلي : « لقد شعرت بان الموقف الذي يواجهنا ، لم يتح ان يدرس باحتراس زائد : وبأن علينا أن نستيقن من اي نوع من الرجال هذا الرجل گوزنكو ، وما هو الباعث الذى حفزه على هذا التصرف •• فعلى المرء أن يفكر بالدول الاخرى مثلما يفكر في دولته ، قبل اتخاذ خطوة قد تُعدّ مبتسرة » •

وجرى التحقيق بالشكل الذى رسمه رئيس الوزراء : وكانت ثمرته اقرار جاء فيه : «انى ايگور گوزنكو أرغب بمحض ارادتي في أن أدلى بما يلي : بعد أن وصلت الى كندا

قبل سنتين ، دهشت خلال الأيام الاولى للحرية الفردية التامة التي توجد في كندا ... لقد صارت الادعاءات الباطلة التي تروّج بشكل متزايد حول الاقطار الديمقراطية تتبدد كل يوم ...» ثم راح ينتقد أساليب القمع والانتخابات ، وبث الارتال الخامسة في الخارج ، ونشر الدعايات المزورة ، والسياسة ذات الوجهين مما زعم أنه يُمارس في بلده . واخيرا ختم اقراره بما يأتي : « اني مسرور اذ وجدت في نفسي القدرة على اتخاذ هذه الخطوة ؛ وتحذير كندا والاقطار الديمقراطية الاخرى ، من الخطر الذى يحدق بها » .

وفي الوقت نفسه ، لم تبق السفارة السوفياتية في أوتاوا مكتوفة اليدين . فقد بعثت الى الجهات المسؤولة عن الشؤون الخارجية في كندا ، مذكرة استعرضت فيها الاحداث السابقة ؛ وبرّرت تصرفات موظفي السفارة ، بأن گوزنكو قد اختفى مع أسرته بعد أن اختلس نقودا تعود الى السفارة! ثم استنكرت تصرفات الشرطة الكندية ، وتجاهلها للحصانة الدبلوماسية . وطلبت كذلك اتخاذ الاجراءات الفورية للبحث عن گوزنكو والقبض عليه ؛ ثم تسليمه الى السفارة لابعاده كمجرم مختلس . وفوق ذلك كله ، طلبت اجراء التحقيق حول تصرفات رجال الشرطة ، وانزال العقوبة بالمقصرّين منهم .

وقد اهتمت السلطات الكندية بهذه المذكرة ، لا سيما بالجزء الذى يدمغ گوزنكو بأنه مجرم قد اختلس نقودا من السفارة ، فطلبت في ردها على المذكرة ، تزويدها بالتفاصيل حول هذه الجريمة .

ولم تجب السفارة على هذا الطلب ، بل أرسلت مذكرة جديدة مستعجلة جاء فيهـا : « ان السفارة تؤكد ما جاء في مذكرتها المرقمة ٣٥ ، في السابع من ايلول ١٩٤٥ ، حول اختلاس گوزنكو لأموال عامـة • وهى تكرر ـ بناء علـى تعليمات من حكومـة الاتحـاد السوفياتى ـ رجاءهـا الى الحكومة الكندية ، بأن تقبض على گوزنكو وزوجته ، وان تسلمه الى السفارة بدون محاكمة ، لترحيله الى الاتحـاد السوفياتى •

ان الحكومة السوفياتية لتعرب عن أملها بأن الحكومة الكندية سوف تجيب هذا الطلب » •

ولكن الامور في هذا الوقت ، كانت قد تطورت تطورا خطيرا • فلقـد تبيـّن ان الوثائق المائـة ، التـى سلـّمها گوزنكو الى الحكومة الكندية ، انما هى صحيحة لا ينال منها أى شك : وانهـا تفضح بشـكل قاطـع شبكات التجسس السوفياتية في كل من كندا والولايات المتحدة •

وعند ذلك ، لم تبق لدى الحكومة الكندية أية رغبة في تسليم گوزنكو وأسرته الى أية جهة •

اعتـــراف

هو من تلك الزمرة من العلمـاء الذيـن أفشوا الـى السوفيات في خلال الحرب الماضية وبعدهـا ، أسرارا ذرية هامة . وكان أبرزهم: كلاوس فوخ ، وبرونو پونتيكورفو . ولكن بينا كان هذان بريطانيين بالتجنس ، كان ألَنْ نَنْ مَيْ بريطانيا بالولادة .

كان مفرط الذكاء ، سريع الادراك للحقائق العلميـة الدقيقة ، مما جعله نجما ساطعا في ميدان البحوث الذرية . وكان عمره في سنة ١٩٤٤ ثلاثين عامـا ؛ ومع ذلك ، فقد استطاع ان يحتل مكانة سامقة في أخطر الاجهزة الحربية ، وأعظمها سرّية .

وأغواه البريق الشيوعى ، فراح يهدى الى الروس ما في حوزته من المعلومات . واستمر هـذا الاهداء اكثر مـن سنتين ، دون ان يعيقه عائق . ثم شك في أمره جهاز الامن البريطانى ، فأطبق عليه ولم يدعه حتى حمله على الاعتراف الكامل - واليك مجمل هذه القصة :

ان تقييم الاحداث المتعلقة بهذا الرجل ، متيسّر مـن مصادر ثلاثة : كندى ، وأمريكى ، وبريطانى . ومن الطبيعى أن يحاول كل من هذه الاقطار ، تضييق المدى لتغلغل هـذا الرجل في اسراره . ولكن المقارنة بين المعلومات ، تجعل له ظلا واسعا بلا ريب .

ولد مَيْ سـنة ١٩١٢ ، وبلغ شـرخ الشباب في فترة الكساد الاقتصادى والاضطرابات التى كيّفت الطراز الذى

كان منه . فقد أصبح شيوعيا ، ولعله كان عميلا للسوفيات؛ لأن التقرير الكندى يذكر انه كان « معروفا » في موسكو من قبل أن يبرح انكلترا .

تخرج في كمبرج ، ثم صار عالما فيزيائيا بارزا . وكانت هناك زمر عدة من العلماء تحت ادارة سر والاس ايكرس ، تقوم بتجارب مختلفة ، في المختبرات الجامعية والصناعية . فأختير مَيّ ضمن الزمرة التى تعمل في مختبر كيفندش في كمبرج .

وأول اشارة اليه في التقرير الكندى تنص على ما يلي : « في تموز سنة ١٩٤٤ عين الدكتور كوككروفت استاذ الفلسفة الطبيعية في كمبرج ، مديرا لمشروع الطاقة الذرية في مونتريال وجوك ريفر . وراح بالتعاون مع العلماء الكنديين ، يعمل في مختبر مونتريال التابع لمجلس البحوث القومية . وكان الدكتور مَيّ ، المستخدم البريطانى الموقت ، ضمن الباحثين الذين قدموا الى كندا : فجُعل رئيسا لاحدى الزمر في مختبر مونتريال ، تحت ادارة كوككروفت » .

وقد يُستنتج من ذلك ، أن مَيّ لم يصل كندا حتى صيف ١٩٤٤ . ولكن الواقع أنه كان قد جاء اليها في كانون الثانى سنة ١٩٤٣ ، مع فريق من العلماء البريطانيين برئاسة الدكتور هولبن، الزميل السابق للعلامة جوليوكورى . وبعد ثمانية عشر شهرا استقال هولبن ، فخلفه الدكتور كوككروفت . ويذكر التقرير الكندى أيضا ان مَيّ

قد استدعى ، قبل ان يمضى على وصوله وقت طويل ، الى شبكة الاستخبارات العسكرية التابعة لزابوتين في أوتاوا ، وذلك بناء على توجيهات من مركز المخابرات في موسكو ٠

ومعنى ذلك ، أن مَى ْ كان يتجسس في نصف الكرة الغربى ، قبل ان يظهر فوخ بأحد عشر شهرا ؛ فهو لم يلحق به فيما بعد كما يفترض العديدون ٠ وقد أتاح له هذا الوصول المبكّر ، فترة كافية لانشاء شبكة تجسسية في ميدان الذرة ٠

وقد وردت في الوثائق التى سرقها گوزنكو من السفارة السوفياتية في أوتاوا ، اشارات الى مَى ْ يرجع تاريخها الى سنة ١٩٤٥ ٠ وهى تظهر أن مَى ْ كان يتخذ اسم « ألك » ؛ ويزود الملازم انجيلوف أحد مساعدى زابوتين بالمعلومات الذرية ٠

وقبل هذا التاريخ بمدة طويلة ، صار مَى ْ ثقة في أطوار بحوث الانشطار النووى في الولايات المتحدة ٠ وقد ساعده في ذلك كونه رئيسا لقسم الفيزياء النووية في مونتريال ، وعضوا في لجنتين بالغتى الاهمية للحلفاء ٠

وفي كانون الثانى سنة ١٩٤٤ ، قام مع فريق من العلماء البريطانيين بزيارته الاولى لمختبر التعدين بجامعة شيكاغو ٠ وفي خلال هذه الزيارة ، قابل أمير اللواء لسلي گروفز المشرف على مشروع منطقة مانهاتن ٠ وقد أعجب لسلي بالعالم البريطانى ، وكان انطباعه فيما بعد من خلال هذه الزيارة ، انه عالم موثوق ، وناضج ، في حوالى الاربعين من العمر ؛ بيد أن مَى ْ كان آنئذ في الثلاثين ٠

وقد قام مَى في الفترة الواقعة بين الخامس والعشرين من أيلول والثلاثين مـن تشرين الاول سنة ١٩٤٤ بزيارة رابعة للولايات المتحدة . وفي أثناء هذه الزيارة ، أجرى مع العلمـاء الامريكيين أبحاثا مكثفـة في « حقل جديد بالـغ السرية والاهمية » . ولا تتوفر التفاصيل عن هذا الحقل حتى الآن .

كان مَى في الزيارات السابقـة ، يقيـم بفندق في شيكاغو ؛ أما في هذه المرة ، فقد أقـام في الملحق الداخلي لمختبر أرگون في تلك المدينة . أما عطلات نهاية الاسبوع ، فانه كان يقضيها مع عالم أمريكي في شقة عالم ثالث غائب عن المدينة موقتا .

وفي سنة ١٩٤٦ بعث اللواء گروڤر الى هيكنلوپر عضو مجلس الشيوخ ، برسالة تنم عن أنه لم يبق على رأيه السابق في مَى ، وان الهواجس بدأت تتداخله من ناحيته . وقـد تليت هذه الرسالة في قاعة المجلس ، وفيها يقول گروڤر من قبل أن ينكشف أمر مَى ، مـا يلي : « لقد قضى مَى في مختبر أرگون وقتا أطول ، وحصل على معلومات أوفر ، من أى عالم بريطاني زائر آخر . ومع انى لم أكن في مرية من أمره ، الا انى لم أحب ان يحصل على هذه المعلومات الواسعة ، حول التطورات الذرية الاخيرة . ولهذا السبب ، رفضت في ربيع سنة ١٩٤٥ الموافقة على قيامه بزيارة رابعة (في الواقع خامسة) لمدة شهر . ان مَى لـم يعد الى مختبر شيكاغو . ولم يزر أية مؤسسة أخرى في منطقة مانهاتن ... » . ثـم يضيف گروڤر الى ذلك قوله : « من المشكوك فيه جدا ، ان

كان مَىْ قد حصل على شييء آخر ، غير المعلومات العامة عن تركيب القنبلة الذرية . اذ لم يكن باستطاعته ان يحصل على هذا الشيء الآخر بالطرق المشروعة ... » .

ومن الحق أن مُجمّع القنبلة كان يُعالج في لوس آلاموس ؛ الا ان الزمالة بين العلماء ، لا بد ان تلعب دورها حتى في أشد الظروف سرّية ؛ وقد تكون قد لعبت دورها بالفعل في القسم الداخلي لمختبر آرگون ، وفي ساعات الفراغ في عطلات نهاية الاسبوع . ثم ما الذى يجعل الجاسوس يشغل باله بالطرق المشروعة ؟!

وقد تبين من فقرة كتبها أنجيلوف في دفتر ملاحظاته الذى أستولي عليه فيما بعد ، ان مَىْ قد سلم اليه في نيسان سنة ١٩٤٥ « عيّنة » من البلوتونيوم ، فأعطي لقاء ذلك مائتا دولار وقنينتان من الويسكى . ثم سلّم « عينة » ثانية ، فحصل على خمسمائة دولار . وقد أرسلت هاتان « العينتان » بالطائرة الى موسكو . فأين حصل عليهما مَىْ ؟ ان التقرير الكندى لا يتكهن بذلك ؛ ولعل « العيّنتين » قد جاءتا من مونتريال ؛ أما اللواء گروڤز فهو يرى إنهما ربما قد جاءتا من شيكاغو .

لقد ساهم مختبر التعدين في شيكاغو ، أكثر من جميع المؤسسات الاخرى في الولايات المتحدة ، في تطوير البحوث نحو انتاج القنبلة الذرية بشكل نهائى . ومن هنا جاءت الفائدة العظيمة التى استفادها مَىْ من عمله في هذا المختبر فترة من الزمن . ولقد كان التقرير الذى وضعه في سنة

١٩٤٥ ، من الدقة والشمول بحيث اتخذته مجلة « لايف » الامريكية في سنة ١٩٥١ أساسا لوضع رسم بيـاني لانتاج المواد القابلة للانشطار . ومن المؤكد ان مـَى قد استطاع وهو يعمل في المختبر ، أن يحصل على أسرار أساسية أخرى، امتدادا من البحوث الاصلية التى كان يجريها هناك .

وكان زابوتين يعمل بمبدأ الاقامة في بلد ، ونشر شبكة التجسس في بلد مجاور . وهو بذلك يضمن « أعلى درجـة من الكفاية ، مع أدنى درجة من خطر المساومة » . وهكذا راح وهو مقيم في كندا ، يركز جهوده في الولايات المتحدة . ولكنه لم يلتزم بهذا المبدأ بحذافيره ، لانه لم يهمل «المطبخ الذرى» في كندا ، بـل استولى على جميع مـافيه بصـورة مدهشة . ولعله قد شعر بأنه من الممكن تخطي هذا المبدأ ، في تجسس مرتجل في ظل الحرب ضد الحلفاء .

وكان في سنة ١٩٤٤ قد أختير موقـع على نهـر جوك بالقرب مـع پيتاواوا في أونتاريو ، لانشاء مفـاعل ذرى نموذجى . وقد أختير هذا الموقع بالذات ، للاستفادة مـن اليورانيوم المجهز من كندا ، و « الماء الثقيل » المجهز مـن الولايات المتحدة،وكلاهما لازمانلهذا المفاعل.وقدتطور هذا المفاعل الفريد والهام بصورة سريعة . وبما انه كان يدار من مونتريال ، فلم يجد مـَي عقبة في اقحام نفسه هناك . وراحت التقارير السريـة تنثال على زابوتين حول هـذا المفاعل ، فبلغ عنده الاعجاب حدا ، ان قام في صيف سـنة ١٩٤٥ ، بزيارة لصديق يقيم عند نهـر جوك : ومن هناك راح يستقل زورقا بخاريا ، فيقـوم بجـولات على امتداد

النهر ، وليس له من هدف سوى ان يبرق الى رئيسه في موسكو بوصف للشكل الذى يبدو به هذا المفاعل من الخارج .

ويظهر من المخابرات بين زابوتين ورئيسه في موسكو ، أن مَى ْ كان يحتل مكانة خاصة ، ويتمتع باستقلال في العمل . ففى سنة ١٩٤٥ ، تسلم زابوتين برقية من رئيسه في موسكو تجرى كالآتى : « ابحث معه (مَى ْ) : هل يعتقد هو أنه من الملائم أن يبقى في مكان العمل من أجل مشروعنا . وهل يستطيع أن يبقى بالفعل ، أم أنه من الانفع والاكثر ضرورة بالقياس اليه ان يغادر الى لندن ؟ » وقد أجاب زابوتين : « انه لا يستطيع ان يبقى في كندا ؛ فعليه أن يطير الى لندن في بداية ايلول . وقبل مغادرته سوف يذهب الى مصنع اليورانيوم في بيتا واوا ، حيث سيبقى حوالى الاسبوعين . وقال انه يجب أن يعود الى كندا لمدة شهر في السنة التالية » .

وقبل أن يغادر مَى ْ كندا ، رتّب مع زابوتين أن يلتقى مع عميل آخر في لندن . ويقضى عليه ذلك الترتيب ان يسير في السابع عشر من تشرين الاول في اتجاه ووقت معينين ، أمام المتحف البريطانى ، وهو يحمل جريدة التايمز تحت ذراعه اليسرى . أما العميل الآخر ، فسوف يتقدم اليه حاملا جريدة الـ « بكجر پوست » في يده اليسرى ، ثم يسأله : « ما هو أقصر طريق الى ستراند ؟ » ، فيجيبه مَى ْ : « حسنا ، اتبعني فأنا ذاهب في هذا الطريق » . وبعد فترة يقول : « أطيب التحيات من ميشيل » .

ولا ندرى اذا كانت الجهات البريطانية المختصة قد نبهت بالسرعة الكافية ، لكى ترصد متسكعا أمام المتحف البريطانى ، في السابع عشر من تشرين الاول ؛ ذلك لأن الوثائق التى سلمها گوزنكو الى السلطات الكندية ، كانت تحتاج الى وقت وصبر طويلين لتفسيرها ، وتبويبها . وفحصها · ويصرح التقرير الكندى بما يلي : « ان الادلة الماثلة أمامنا ، لا تظهر ما اذا كان هذا الاتصال قد تم » ·

وكان لدى مَيْ خمسة أشهر ليستعد الى مهامه الجديدة في لندن · ويظهر من البرقيات التى بعث بها زابوتين الى موسكو ، انه قد كُلِّف بمواصلة محاضراته في الفيزياء في « كلية الملك » ، وانه كان من الممكن الاتصال به هاتفيا هناك اذا اقتضت الضرورة · وكانت احدى الخطوات الاولى لرأب الصدع الذى أحدثه گوزنكو ، هى القيام بمثل هذا الاتصال الهاتفي ·

وفي الخامس عشر من شباط سنة ١٩٤٦ ، أى في اليوم الذى بدأت فيه حملة الاعتقالات في كندا ، ضد المشبوهين الذين دلّ عليهم گوزنكو ، دلف الى شيل ميكس هاوس حيث يعمل الدكتور مَىْ ، العقيد برت رئيس مقاومة التجسس في سكوتلنديارد ، وطلب رؤية الدكتور · وسأله العقيد عما اذا كانت قد أفشيت بعض شؤون الذرة خلال اقامته في كندا ، فأجاب : « هذه أول مرة أسمع فيها هذا الكلام! » ؛ ثم أنكر اتصال أى عميل سوفياتى به في كندا ، ورفض الاجابة على أسئلة أخرى ·

ومضت خمسة أيام من الرقابة الشديدة ؛ فلم يستطع مَى ْ أن يسرّب معلومات جديدة · وفي هذه الفترة وصلت من كندا تفاصيل أخرى حول تشاطه هناك · وعلى أثر ذلك قام العقيد برت بزيارة أخرى للرجل ، وقال له في هذه المرة : « لقد علمت أنه كان من المفروض ان تقابل شخصا ما بالقرب من المتحف البريطاني ، ولكنك لم تواف ذلك الشخص في الموعد المضروب ؟ » فأجاب مَى ْ : « هذا صحيح ··· لقد قررت ان أغسل يدى من هذه المسألة ! » ·

وكان هذا اعترافا ضمنيا بتورطه في التجسس · ومن قبل أن تتخذ السلطات المختصة الاجراءات للقبض عليه ، قال انه يريد ان يكتب اقرارا بما فعل · وفي هذا الاقرار ذكر ما لا يمكن انكاره ، واخفى ما يمكن اخفاؤه !· وهذا هو الاقرار :

« حين كنت في كندا ، قبل سنة تقريبا ، اتصل بي شخص لا أريد ان ابوح بهويته · زارني في شقتي بشارع سويل في مونتريال · والظاهر انه كان يعلم اني مستخدم في مختبر مونتريال ؛ فطلب مني معلومات حول البحوث الذرية · ولقد فكرت مليا في انه من الصحيح عدم جعل تطور الطاقة الذرية وقفا على الولايات المتحدة · فاتخذت ذلك القرار المؤلم للغاية ـ انه من الضرورى ان أنقل الى الآخرين معلومات عامة عن هذه الطاقة ، وان أستيقن من انها سوف تؤخذ مأخذ الجد · ولهذا السبب وافقت على اقتراحات عرضها ذلك الزائر · وبعد هذا اللقاء الاولى ، التقيته في عدة مناسبات أثناء مكوثى في كندا ·

وقد تقدم الي بطلب معلومات معينة ، كانت بالقياس الى ضرباً من الهذر ـ وأعني بذلك انها كانت مما يعسر على فهمه . بيد انه طلب أيضا عيّنات من اليورانيوم ، ومعلومات عامة عن الطاقة الذرية . وفي أحد اللقاءات أعطيت الرجل كميتين مجهريتين من الـ ٢٣٣ U والـ ٢٣٥ U . وكانت عينة الـ ٢٣٥ U مقوّاة ، وفي أنبوب زجاجي صغير ، وتحتوى على حوالى الملّيغرام من الاوكسيد . أما عينة الـ ٢٣٣ U فكانت حوالى عشر الملّيغرام ، أى راسبا خفيفا جدا فوق صفيحة رقيقة من البلاتين ، وملفوفة بقطعة من الورق . وأعطيت الرجل كذلك تقريرا مكتوبا عن البحوث الذرية كما كنت أعلمها . وكانت هذه المعلومات في الغالب من النوع الذى نشر منذ وقت ، أو على وشك ان تنشر . وقد سألني الرجل أيضا عن معلومات حول القذائف الامريكية ضد الطائرات ، الموجهة بصورة اليكترونية : فكنت أعرف عنها الشيء القليل جدا ، وعلى ذلك استطعت ان اعطي معلومات ضئيلة للغاية فقط . وقد طلب الي أيضا ان أقدمه الى أناس يعملون في المختبر ، وبضمنهم رجل يدعى ق ... ولكني نصحته بعدم الاتصال به . ثم أعطاني الرجل بعض الدولارات (وقد نسيت مقدارها) داخل قنينة ويسكي ، نقبلتها على مضض .

وقبل أن أبرح كندا ، رُتب لي ان أقابل عند عودتي الى لندن ، شخصا لا اعرفه : وأعطيت تفاصيل معينة لاجراء هذه المقابلة ، ولكني نسيتها الآن . ولم أحافظ على هذا الموعد ، لأنني رأيت ان هذا الاجراء السرّى لم يعد مناسبا ،

بالنظر لاطلاق المعلومات بصورة رسمية ، واحتمال القيام بسيطرة دولية كافية على الطاقة الذرية » .

واستنادا الى هذا الاقرار ، جادل عنه محاميه في المحكمة بأنه «رجل شريف لم يفعل الا ما اعتقد انه العمل الصحيح» . وفي الواقع ، ان هذا الاقرار اعتذار لا عذر فيه ؛ بل هو نسيج من المراوغات والتشويهات ؛ وأول هذه ، ان مي قد تسلم سبعمائة دولار وقنينتين من الويسكي ، وليس عددا مجهولا من الدولارات داخل قنينة .

ولقد كانت القذائف الجديدة ضد الطائرات ، التى طورتها البحرية الامريكية لاستخدامها ضد العمليات الانتحارية التى كان يقوم بها الطيارون اليابانيون ... كانت في الوقت الذى أفشى فيه مي تفاصيلها الى السوفيات من السرية بحيث لم يكن يعلم بها حتى البريطانيون . وكان مي مضطرا الى التطرق اليها في اقراره ، لأن الوثائق التى قدمها كوزنكو قد أشارت الى تورطه في افشاء أسرارها ؛ وان كان تطرقه اليها قد ألقى ضوءا على زعمه الورع بأنه كان يتجسس فقط لانقاذ البشرية من آفات القنبلة الذرية! أما فيما يتعلق بتوبته من التجسس بعد نشر الحقائق حول الطاقة الذرية ، فان تقرير سمث الذى حوى تلك الحقائق، قد نشر قبل قيامه باعطاء تفاصيل هذه القذائف الى السوفيات ؛ وهى تفاصيل لا علاقة لها بانقاذ البشرية من آفات القنبلة الذرية .

وكان لا بد ان تجرى محاكمة مي في جو من السرية، كذلك الجو الذى أحاط بمحاكمة كلاوس فوخ أيضا . وقد

أكد الاستاذ جيرالد گاردنر ، محـامى مـَى ْ ، في احـدى جلساتها ، ان العقيد برت كان قد أخبر العالم الفيزيائى ، بأنه توجد معلومات كثيرة حول قيامه بالتجسس ، وتورطه الكامل فيه • وقد يكون قصد المحامى من ذلك ، انه لم تكن هناك « أدلة » ، بل مجرد معلومات عامة • ومهما يكن من شيء ، فان برت قد أجاب بأنه لم يكـن في العشرين مـن مارت سنة ١٩٤٦ ـ وهو الوقت الذى نسب اليـه فيه ذلك القول ـ لم يكن في ذلك التاريخ في وضـع يمكنه من اتهام مـَي ْ بأى شيء • وأصرّ المحـامي كذلـك على ان رئيـس مقاومة التجسس قد صرّح بتقديره لعدم قيام مـَى ْ بمـا قام به من أجل المال • ولكن العقيد برت قد أجاب : « أوه ، كلا • ان هذا على النقيض مما أبديت ، وهو ان الكسب قد دخل في هذه القضية » •

وقد اغتنم محامي مـَى ْ الحماية الكاملة التى يوفرهـا القانون الانكلوسكسونى للمتهم ، فطلب اجـراء المحاكمـة أمام هيئة محلفين ، فأجيب طلبه • وعندما بدأت المحاكمة ، أقر مـَى ْ بأنه مذنب • وكانت هذه مناورة من محـاميه ، لكى يستفيد أقصى الاستفادة من الاقرار المزعوم الذى سبق أن أدلى به مـَى ْ ، ولكى يجرد الاتهام من حق تقديم الادلة الدامغة ضد موكله • وقد حاول الاستاذ گاردنر كذلك أن يثير عقبة جديدة أمام الادعاء العام ؛ فذكر ان مـَى ْ قد أخبره بأن الشخص الذى تلقى منه المعلومات كان روسيا • وكان هدفه من ذلك ان يبين ان روسيا لم تكن في ذلك الحين عدوا لبريطانيا ، وهذا من الاركان التى يشترطها القانون

في هذه الجريمة • بيد ان المدعى العام الاستاذ سر هارتلي شوكروس بادر الى القول : « لا يوجد هناك أى افتراض أن الروس هم أعداء فعليون أو محتملون ••• فلقد سبق أن قررت المحكمة ان هذه الجريمة تتألف من افشاء معلومات الى أشخاص غير مخولين » •

وحين نطق القاضى اوليفر بالحكم قال لمي : « سواء كانت النقود هى الهدف لما فعلت أو لم تكن ، فان الحقيقة الثابتة هى انك قد حصلت بالفعل على نقود لقاء ما أتيت • انها قضية سيئة للغاية حقا ••• ان الحكم عليك هو عشر سنوات مع الاشغال الشاقة » •

قضـــية پتروڤ

في الثالث من نيسان سنة ١٩٥٤ برح ڤلاديمير پتروڤ السفارة الروسية في كامبيرا ؛ ثم قدم طلب اللجوء السياسى الى سلطات الكومنويلث في استراليا ٠

وكان من بين من اهتم بهذه الفضيحة الدبلوماسية رجل يقـال لـه ميخائيل بيا لوكسكى ـ وهو طبيب من أصـل پولونى ، عاش في استراليا اكثر من اربع عشرة سنة ، كان في خلالها يمارس الخدمة السرية لصالح استراليا في أوقات الفراغ !

وقد أثمر اهتمامه بهذه القضية كتابا أسماه « قضية پتروڤ » ، سرد فيه جميع التفاصيل التى أثارت في حينـه ضجة كبرى في أوساط الصحافة ، ولدى الرأى العام العالمى ٠

ومن الاحداث المثيرة التى لابست هـذه القضية ، ان رجال السفارة السوفياتية حاولوا ـ بعد طلب الزوج اللجوء السياسى ـ أن يرحلوا زوجتـه الى الاتحـاد السوفياتى ٠ ولكن رجال الامن في استراليا ، استطاعوا ان يفلتوا بهـا بشكل مثير ٠

ونحن في هذا الفصل نلخص هذه المحاولة كما سُردت في الكتاب المذكور :

في خلال اسبوع اصبح هرب پتروڤ مما يعرفه الجميع٠ وكنت في أثناء مناوراتى للحصول على المعلومات ، التقيـه بين الفينة والفينة ٠ وكان اكثر ما يدور حوله حديثنا ، هو مصير زوجته دوسيا ٠

وما من ريب في ان هذه كانت وقتئذ محتجزة في السفارة الروسية ؛ وهذه الحقيقة كانت تترك اسوأ الاثر في نفس بتروف . فلقد كان في أشد الحاجة ، آنئذ ، الى شخص قريب منه . لقد كنت أواسيه الى حد ما ، وأشد أزره معنويا ؛ بيد انه في مثل تلك الظروف ، كان يحتاج الى ماهو أكثر من ذلك ؛ وهذا لا يتأتى الا من زوجته .

كانت حالته الذهنية والنفسية لا تتيح له ان يواجه متاعبه منفردا . ثم انه ـ وهو نفسه من رجال الخدمة السرية ـ لا يخفى عليه بعد ما فعل ، ما يتربّص به من خطر .

كان يكلّمني عن زوجته كلاما لا حدود له ؛ وفي جميع زياراتى المتكررة له ، كان حديثه لا بد ان يدور حول دوسيا . وقد أدركت من ذلك ، ان الرجل كان متشائما ، وانه ينظر الى الامور بمنظار اسود . وهذا كله يجعله يتوقع انه سوف يبقى في استراليا بدون زوجته .

كان يقول : ان وجود أسرتها هناك هو السبب ؛ ولولا ذلك لمكثت معى ... لقد أفصحت لى مرارا عن انها مثلى ضيقة الصدر بما كنا فيه . ولكنى واثق من انها ستعود .

ولم اشاركه تلك الثقة ؛ ورحت أجادله بأن دوسيا امرأة حكيمة ، واقعية ؛ وانها الآن لا بد ان تميل الى الأبقاء بجانبه . صحيح ان تفكيرها في اسرتها في الوطن يقوم عقبة ازاء ذلك ... ولكن ماذا ينفع الاسرة ان تعود اليهم ؟ ان

دوسيا تدرك هذه الحقيقة لا محـالة ··· فانت تعلم يـا ڤلاديمير انك بطلبك اللجـوء السياسى قـد أدنت معـك زوجتك ··· بل أدنت أيضا كـل من يرتبط بك برابطة ولو كانت بعيدة ! وفي هـذا لا يهـم مستقرّ زوجتـك على الاطلاق ، ويستوى ان تكون هى هنا أو هناك ·

كان پتروڤ يرى الحقيقة الكامنة وراء هذا الكلام ، فيوافقني أحيانا · بيد انه يبقى في قرارة نفسه غير مصدق وغير مقتنع · ولذلك كان بعد مثل هـذا الحوار ، يطغى عليه الاسى والارتياب ، ثم يقول جازما : انها ستعود ··· انى أعرفها حق المعرفة ··· فهى امرأة ذات جلد وتصميم ·

وكان مثل هذا الكلام ، ومثل هذا الانفعال حول دوسيا لا بد ان يتشعّب في كل ناحية ، فتثور أسئلة من هذا القبيل: بماذا كانت تفكر ؟ ماذا كانت تصنع ؟ هـل هى تعيسـة وتلوم پتروڤ ؟ هل كانت تلقى معاملة سيئة ؟ ماذا سيكون مصيرها اذا عادت الى روسيا ؟

ووجدت نفسى تلفّنى العناصر الانسانية ، في وسط هذا الموقف الحرج ؛ ولم أعد استطيع ان اتخذ نزعة محايدة كالتى يجب ان يتخذها ذو العمل السرّى · ورفعت هـذا الموقف الى ذروته ، حين جعلت ما سيحدث لهذه المرأة ضمن مسؤوليتى الى درجة كبيرة ··· انها لم تعد صفرا في هذه اللعبة ، بل اصبحت كائنا بشريا · وازداد الضيق في ذهنى، لعجزى عن القيام بأى شيء ·

وفي مساء يـوم سبت ؛ بينا كنت في قلق وتردد وهمّ حول مـا يجب ان اصنع ، اذا بپتروڤ يقبـل لزيارتى في

شقتي في لندفيلد . كان الاسى والقلق قد تركا آثارهما على مظهره ـ فصار ينمّ عن فقدان العافية . ولم يكن لدينا الكثير مما يقال ، فكلنا يعلم ان دوسيا سوف تعاد الى روسيا . ثم تطرق پيتروف الى الموضوع الذى كان يدور بخلدنا جميعا فقال : لو أستطيع فقط ان اتكلم معها ... اذن لأقنعتها بالبقاء . فقال ريجاردس ـ وكان قد جاء معه ـ : حسنا ... اننا سوف نتخذ ما يلزم لكى تكلمها فسألت :

ـ وكيف سترتّبون ذلك ؟

ـ سنرتب ان يقابلها ڤلاديمير وهى على وشك ا تغادر سدنى .

كان ريجاردس هذا من رجال الامن الاستراليين ؛ وقد فهمت مما قال انهم يخطّطون لكى يظهر پتروف أمام زوجته في اللحظة الاخيرة ، فيحاول اقناعها بالبقاء . ولم يعجبني هذا الاقتراح ، لأن احتمال الاخفاق فيه عظيم بيد أني لم أقل شيئا على سبيل الاعتراض ، أو على سبيل البديل ؛ بل رحت أضع خطة أخرى لمعالجة الموقف .

وهذه الخطة هى عدم التعرض للسيدة پتروف في سدني ، سواء كان ذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة ؛ لأنها ستكون آنئذ قادمة من السفارة السوفياتية ، فلا نعلم حالتها النفسية ، وما تعرضت له من ضغوط وتوجيهات . هذا فضلا عن انها قد تكون ناقمة على زوجها ، لأنه جعلها في هذا الموقف الحرج . ونتيجة ذلك كله ، انها اذا رأته

بغتـة ، فان رد الفعل لديهـا سيكون غير موات ··· وقد يحملها على عدم البقاء ·

وكان من رأيي ان نترك پتروف بعيدا عن زوجتـه · حتى تستكمل مراحل سفرتها داخل استراليا ، وتوشك ان تخرج من الاختصاص الاقليمى البريطانى · عندئذ ستكون في اللحظات الاخيرة للتوجه الى الوطن ··· وفي حالة نفسية أخرى ، تختلف كل الاختلاف عن الحالة النفسية التى سبق ذكرها · انها ، آنئذ ، ستكون اكثر واقعية ، وأحسن تفهمـا لما قد ينتظرهـا ، وأفضـل استعداد للاستماع الى زوجهـا والاستجابة اليه ·

وعرضت هـذه الخطـة الجديدة عـلى رجـال الامـن الاستراليين ، ورحنا نتبـاحث في تفاصيلها · قلت لهـم : عليكم أن تخلقوا من الظروف مايجعل رجال السفارة السوفياتية يعتقدون ان زوجـة پتروف لا تبغى البقـاء في استراليا بمحض ارادتها · ان مثل هذا الاعتقاد ، ذو فائدة مزدوجة : فهو من جهة سيجعلها أقل قلقا على مصير اهلها ؛ وهو مـن الجهة الاخرى سوف يحسـن موقفها لدى رجال السفارة ·

وقد طلبت اليهم أيضا ان يتشاوروا معى حول جميـع الخطوات التى سوف يتخذونها فيما يتعلق بهذه القضية ·

وكان الروس في هذه الاثناء ، يسلـّطون الاضواء على السيدة پتروف ، بشكل يدعو الى الدهشة · لقد راحوا كلما فتر اهتمام الرأى العام بهـا ، يعيدونها الى وسط المسرح ، فيغرقونها بالانوار الكشافة ·

وفي الوقت المحدد لمغادرة دوسيا ، انطلقت من السفارة السوفياتية سيارة (الليموزين) السوداء تنهب الارض نهبا. وكان المخبرون يطاردونها ؛ فلاحظوا في المقعد الامامى السائق والسكرتير الثانى كسلتسين ؛ وفي المقعد الخلفى امرأة مستخفية تجلس بين زاركوف وكاربنسكى ؛ وهذان دبلوماسيان عليهما مظهر الصرامة والشدة .

وحين وصلت السيارة المطار ، كان هياج الجمهور لا حدّ له . ولم تستطع السيدة پتروف ان تتبيّن مردّ ذلك الهياج؛ ولا ان تحزر هل هو ضدها أو ضد الذين يرافقونها.

وظل رجال الامن طيلة هذا المشهد المتأزم ، المتأجج هادئين لا يفعلون شيئا . ويفهم من ذلك انهم قد تلقوا تعليمات بعدم التدخل . ويعنى ذلك أيضا انهم قد صرفوا النظر عن خطتهم السابقة لاجراء المقابلة بين الزوجين في هذه المرحلة ، والعمل في مكان آخر من طريق الرحلة ـ أى أنهم قد تبنّوا الخطة التى تفتّق عنها ذهنى .

بيد ان هذا الموقف السلبى ، قد حمل الجمهور الهائج الساخط على الاعتقاد بأن رجال الامن قد تخلّوا عن السيدة پتروف ، واتخذوا نزعة الحياد ازاء مصيرها المجهول . فعظم هياجهم ، واشتد سخطهم ، واوشك هذان ان يتحولا الى مظاهرة خطيرة ، لولا تدخل الشرطة والطيارين .

وفي العاشرة مساء ، أقلعت الطائرة وراحت تختفى في الجو المظلم ؛ في حين ان الجمهور كان لما يزل يغلى ويصخب حول المطار . وبقيت الشرطة في حالة تأهب لما قد ينجم عنه هذا الغليان .

وعندئذ انصرفت أفكارى الى المستقبل القريب · ماذا سيحدث ؟ ورحت أفترض الفروض ثم أقامر عليها مع نفسي ؛ فهل سوف تنجح مغامرتى ؟ وكنت كيفما نظرت الى مصير هذه المرأة ، وجدته مما يدخل ضمن مسؤوليتى · فهل ضاعت فرصتها الاخيرة ، وعجزنا عن ان نفعل لها شيئا ؟·

وكان رجال الامن على الرغم مما يبدون من عدم المبالاة ، لا يزالون يملكون أوراقا يستطيعون ان يلعبوا بها في الوقت المناسب · وهذا الوقت لم يضع نهائيا ؛ لأن الطائرة ستظل حتى اليوم التالى ، وحتى تهبط في مدينة دارون ، في الاجواء الاسترالية ، وتحت سيطرة الاختصاص الاقليمى الاسترالى ·

وكان على متنها أحد رجال الامن ، والمراسل الخاص لصحيفة سدنى مورننك هيرالد · وقد ذكر هذا المراسل ان السيدة پيتروف قد تهالكت في مقعدها شاحبة ، مضطربة ، منهكة ؛ وانها حين أقلعت الطائرة ، أخذت تذرف الدموع ، فتختلط المساحيق فوق وجهها الذى كان يلمع مما يتصبب عليه من العرق ·

واستأذنت دوسيا من أحد المضيفين في ان تدخن ، فلم يأذن لها ؛ ولكنها على الرغم من ذلك ، أشعلت لفافة تبغ وراحت تدخن · ولم يحاول رجال الطائرة الذاهبون والعائدون في الممر منعها ·

كانت تجلس الى جنب كسلتسين ، ويجلس خلفهما الدبلوماسيان الضخمان زاركوف وكارپنسكى · وحين

اندفعت الطائرة في الجو ، لاح على السيدة پتروف انها تجنح الى الهدوء والسكينة · وجعلت تحدق من النافذة في ذلك التيه من الانوار الذى يتلألأ فوق سدنى ·

ثم طغى عليها الانفعال ثانية ، فجعلت تبكى ؛ في حين جلس كسلتسين معتدلا غير آبه · وكانت الرحلة كلما تقدمت ، ازدادت دوسيا قلقا ، وازداد مرافقوها توترا ·

وقد التقطت أكثر من مرة الصحف الصادرة عصرا ؛ وفيها يتوجه پتروف بنداء لها لكى تبقى في استراليا · وكانت كلما مرت دقيقة أو دقيقتان ، رمت الصحيفة جانبا لتغرق في تفكير عميق ·

وحين طلع الصباح ، بدت عليها امارات المرض · وذلك من الجهد العاطفى بلا ريب ؛ لأن السفرة كانت مريحة ، والطائرة تنزلق بكل هدوء · وقد تكلمت مع بعض أفراد طاقم الطائرة ، ومن بينهم المضيفة جويس بل · وهذه الاخيرة على صلة برجال الامن ، ولو بصورة غير رسمية ·

وبعيد اقلاع الطائرة ، كان ربانها الكابتن جى· ديفز، قد تلقى عن طريق المذياع طلبا من رجال الامن ، بأن يوجه الى السيدة پتروف ثلاثة أسئلة ، هى :

ما هى حالتها الصحية ؟

هل هى خائفة ؟

هل ترغب في البقاء في استراليا ؟

وفي الوقت الذى افتعلت فيه المضيفة جويس بل الفرصة لايصال الاسئلة الى السيدة پتروف ، كانت الطائرة تدنو

من مطار دارون . واستطاعت دوسيا ان تخبر المضيفة بأنها خائفة ، وبأن الدبلوماسيين الجالسين خلفها مسلّحان ، ومستعدان لاستخدام القوة عند الحاجة ، وبأنها ترغب في البقاء في استراليا ، لولا ما تشعر به من خوف .

في مثل هذا الجو المشحون بالتوتر ، هبطت الطائرة مدينة دارون ـ آخر محطّ لها في استراليا . وكان ذلك في الساعة الخامسة والربع من صباح التاسع عشر من نيسان سنة ١٩٥٤ .

وعلى النقيض من الجمود الذى أبداه رجال الامن في سدنى ، كانوا هنا يتحركون بنشاط جمّ ، وسرعة فائقة . فما كاد الفريق المصاحب للسيدة پتروڤ يطأ أرض المطار ، حتى أحدقوا به من كل جانب . ثم فصلت الشرطة بين كسلتسين والسيدة پتروڤ من جهة ، وبين الدبلوماسيين الآخرين من جهة أخرى . وأطبق على هذين الاخيرين ستة من الرجال فجرّدوهما من السلاح . وفي الوقت ذاته ، فصلت السيدة پتروڤ عن كسلتسين .

وأقبل عليها السيد ر . ليدن ، أحد كبار الضباط في الاقليم الشمالى ، فراح يستجوبها . وقد بيّن لها انها اذا رغبت في البقاء في استراليا ، فانه مخوّل بالموافقة على ذلك ، نيابة عن حكومة الكومنويلث ، وباستخدام القوة لحمايتها ، اذا ما جرت أية محاولة لمنعها من البقاء . ثم اعطى لها مهلة لاتخاذ قرارها في رويه وتدبّر .

ومضت ساعتان ؛ ثم استدعيت السيدة پتروف الى المكتب الكمركي ، فأخبرت بأن زوجها يريد ان يكلمها هاتفيا ، وانه سيطلب اليها لآخر مرة ان تبقى معه في استراليا . وقد كشف السيد منزيس رئيس الوزراء فيما بعد ، ان السيدة پتروف كانت حتى تلك اللحظة تظن أن زوجها قد مات ، ولذلك كان أمر هذه المكالمة مفاجأة لم تكن توقعها .

تناولت السمّاعة ، فتحلّق حولها رجال السفارة والامن والشرطة ؛ ثم تكلمت بالروسية دون ان يحاول أحد التدخل . كان صوتها منخفضا في البداية ، ثم جعلت تصغى لفترة طويلة دون ان تقول شيئا . وبعد ذلك رفعت صوتها، وقالت : (Nyet ... Nyet) أى (كلا ... كلا) .

وقد دامت المكالمة اربع دقائق ، فلما انتهت بدا على السيدة پتروف انها حزينة ومنهكة . وتقدم اليها السيد ليدن ، وجعل يكلمها ثانية ، بيد انها كانت تجيب بهز رأسها وكتفيها !

وفي هذا الوقت لم يبق سوى عشرين دقيقة ، لكى تغادر الطائرة مطار دارون ، متوجهة الى سنغافورة . فأقبل السيد ليدن ليكلم السيدة پتروف كرة اخرى . وهنا تدخل السيد كسلتسين ، وحاول الاعتراض . ولكن دوسيا قالت بالانكليزية : « كلا ... انى اريد ان اذهب معه » .

وصحبت السيد ليدن الى دائرة المطار ، فأغلق الباب من دونهما ؛ ووقف سائر المسؤولين والشرطة في الخارج على أهبة الاستعداد .

وراح كسلتسين يحتج على انتزاع السيدة پتروف من بين أيديهم • فدنا منه السيد ادموندس ـ أحد رجال القانون في حكومة الكومنويلث ـ فقال له : « لقد ذهبت السيدة پتروف مع السيد ليدن الى مقر الحكومة » • فصاح كسلتسين : « لماذا ؟ » فأجابه ادموندس : « انها تريد ان تأخذ قسطا من الراحة في استراليا ! » فاستولى الغضب على الدبلوماسى ، وراح يصرخ : « هذا استفزاز ••• هذا خطف ! » •

وحين سمعت هذه الكلمات ، رجع ذهنى الى الوراء ؛ فأدركت ان رجال الامن قد عملوا بنصيحتى • واستولى على الارق في تلك الليلة • وفي الصباح الباكر انطلقت الى المدينة ، فرحت أهيم في شارع پت على غير هدى ، وسط زحام الجمهور المنطلق للتسوّق •

كنت انتظر ظهور الصحف بعد دقائق قليلة لاعرف ماذا تم من أمر السيدة پتروف • ووقفت بزاوية في شارع كِنْك أرقب قدوم باعة الصحف ؛ فاذا بمركبة تمرق من أمامى ، وعلى جانبها لوحة كبيرة كتب عليها : « انها تبقى » وعندئذ ، لم أعد محتاجا الى الصحف •

في عرين الأسـد

لعل جمعية كوكلوس كلان ، هى ابغض جمعية سرية عرفها التاريخ . وكان أغلب اتباعها يقيمون في أعماق الجنوب الامريكي ، أما مقرها الرئيس فهو مدينة أتلانتا ، التى يطلق عليها أعضاء الجمعية لقب : «المدينة الامبراطورية لامبراطورية كوكلوس كلان الخفيّة » .

وليس لهذه الجمعية أهداف معلنة ؛ ولكن يستنتج من ضحاياها انها تريد ان تمحو من وجه الارض : الزنوج . والكاثوليك ، واليهود ، والشيوعيين – وبعبارة عامة كل من يثير في نفوس اتباعها الكره لاسباب عرقية او دينية ، أو سياسية . ولكن الزنوج يحتلون لديها مكان الصدارة كهدف للبطش ؛ ويردّد اعضاؤها : « ان موتى الزنوج سماد رائع ! » .

والى قلب هذه الجمعية الرهيبة ، تسلّل ستيتس كندى ، أحد وكلاء الادعاء العام في ولاية جورجيا . وكان هدفه التجسس عليها ، وجمع الحقائق ضدها ، لشن الغارات الماحقة على معاقلها . انتقل من ميامى في فلوريدا الى اتلانتا في جورجيا ؛ وغير اسمه الى جون سى . پركنز . وبعد ان تم له الانضمام الى الجمعية ، راح يتسلّق ثقة زعمائها ، ليصل الى أرفع اسرارها .

وفيما يلى يصف لنا اجتماعا طارئا لهذه الجمعية ، والشكوك والمخاوف التى أحدقت به ، وهو يحضر ذلك الاجتماع ، ليؤدى واجبه الخطير :

استيقظت بغتة ، وكانت يدى قد سبقتنى بصورة غريزية الى المسدس الذى أخفيته تحت وسادتى . وأدركت بعد قليل ان جرس الهاتف هو الذى ايقظنى ؛ فأنرت مصباح السرير ، وأنا أغمغم باللعنات . كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ؛ فأدركت ان هناك أمرا ذا خطر ، وأخطر من ذلك ألا أجيب على النداء بسرعة . ذهبت الى البهو وأنا أتعثر ، فالتقطت السماعة :

ـ من المتكلم ؟

فجاءنى الجواب بصوت يشبه مازجة السمنت وهى تدور بنصف سرعتها :

ـ كليف كارتر .

وهو اسم رئيس فرقة القتل في الجمعية ـ نادىالمغاوير! فأجبت :

ـ جون پركنز .

وهذا اسمي المستعار الذى صرت أحمله بعد ان اصبحت عضوا فيها .

ـ ما هو رقمك يا پركنز ؟

ـ ثلاثة وسبعون .

ـ أبيض .

وهذا هو النصف الاول من عبارة السر .

ـ رجل

وهذا هو نصفها الثانى .

واستطرد المتكلم في مراسم التعرّف :

ـ مواطن ٠

فتمتمت قائلا :

ـ مولود ٠

واذ اطمأن كارتر الى اني من الاخوة فعلا ، انتقل الى اعطائى اسمه السرّى كرئيس لفرقتنا فقال :

ـ هنا كلير ووتر ٠٠٠ وهـذا استدعاء عاجـل ٠٠٠ تذكر قسمك على ان تكون مستعدا حين الطلب ٠٠٠ وهـذا الطلب ملزم ٠٠٠ خـذ رداءك وأحضر في أتم اهبة ـ الى الصخرة السوداء !

كنت الآن في أتـم الوعي ، وأفكر بعمق وجد ٠ لقـد قصد كارتر بقوله : « احضر مستعدا » ان اجلب معي أى سلاح يتوفر لدي ؛ أمـا « الصخرة السوداء » ، فهو الأسم السرّى لضاحية من ضواحى أتلنتا تدعى بكهيد ـ احد مراكز التحشد الرئيسة لمغاوير الجمعية في أنحاء المدينة ٠ واذن ، فهناك في هذه الليلـة ضحيـة جديدة تنتظر الجلد ٠٠٠ أو ماهو أمرّ وأدهى ! ومن يدرى ؟ فلعلنى كنت انـا شخصياً أدعى لحضور جنازتى ! وهذا احتمال قائم في كـل اجتماع من هذا النوع ٠

قلت بصوت متداع :

ـ كلير ووتر ٠٠٠ أنت تعلم انى كنت مؤخرا في أشد حالات المرض من جراء البرد ، فما أظن اني سأكون لك من النافعين في هذه الليلة ٠

فزأر كارتر قائلا :

ـ أيها الأخ ... أنت تعرف القسم مثلما أعرفه . ولقد علمت انك لست طريح الفراش ، فلن أسمح بعذر آخر ... انه يجب عليك ان تذهب ... ثم سمعت الهاتف وهو يغلق .

لا مهرب اذن من الذهاب ؛ والا فاني سوف أطرد من هذه الامبراطورية الخفية . ذلك ان كل عمل يضطلع به « نادى المغاوير » ـ الجناح العسكرى للجمعية ـ انما يقترن بموافقة « التنّين الاعظم » ، الرئيس الاعلى للجمعية ، فليس هناك من سبيل للتملّص منه .

والقسم الذى يؤديه الاعضاء ، لا يقتصر على اطاعة أوامر الرؤساء ، بل يشمل أيضا فرض الطاعة على كل عضو يخرج على هذا القسم . وقد تخلّف أحد الاعضاء عن هذه الطاعة ؛ ثم قبل ان يجلد بدلا من ان يطرد ؛ فرأيته بأم عيني وهو يهيم عاريا وسط طوق محكم من أحزمة أخوانه في الجمعية ، وهم ينهالون عليه بالضرب المبرّح من كل صوب! ولم تكن لدى أية رغبة في الدخول الى مثل هذا الطوق .

اتصلت عن طريق الهاتف السرّى بمساعد المدعى العام في الولاية « دان ديوك » . كان نائما ، فانتظرت فترة قلق وحرج ؛ ثم جاءنى صوته من الطرف الآخر . ونقلت اليه باختصار نبأ الاستدعاء العاجل . فسأل :

ـ هل لديك فكرة عن الفريسة التى يطاردونها في هذه المرة ؟

ـ كلا ، البتة ٠

ـ حسنا ٠٠٠ سأبذل قصارى جهدى ليكون رجالى في بكهيد في الوقت المناسب ٠ واذا حصلت على المزيد من التفاصيل ، وأتيحت لك الفرصة للاتصال بى دون اثارة للشبهة ، فافعل ٠

ـ سوف أفعل ٠ والآن من الافضل ان اشرع في الذهاب، فليس من الحكمة والسلامة ان اتأخر في مثل هذه المهمة ٠

انطلقت بسيارتى في شوارع المدينة الخالية ،مسدسى في جيبى وردائى الابيض الخاص تحت مقعدى ٠ وحين دنوت من بكهيد رأيت سيارات الآخرين منتشرة في مساحة تمتد حول عدة بنايات ٠ وهذا أمر دُرّبنا على فعله ، حذرا من اثارة الشبهات ٠ بيد انه كانت هناك سيارات أخرى ماتزال تصل ، وتحوم حول المكان ؛ فعلمت انى لست آخر من وصل٠

ورحت أتساءل عما اذا كان رجال مساعد المدعى العام قد اتخذوا مواقعهم ، للانقضاض عند اللزوم ٠ لقد كانت عملياتنا ضد هذه الجمعية خطرة وحرجة للغاية ٠ ولذلك أخفى دان ديوك شخصيتى حتى عن رجاله الآخرين الذين اختارهم بنفسه ؛ كما انى بدورى كنت أجهل شخصيات هؤلاء ٠ وقد بلغ حذره من ان يتغلغل أفراد الجمعية في مراكز اعداد قوائم الرواتب لرجال ووكلاء المدعى العام ، ان جعل لى حسابا خاصا ، أسحب منه رواتبى !

أوقفت سيارتى في ظلال شارع جانبى ؛ ثم توجهت الى مكان التجمع ـ وهو ساحة لوقوف السيارات ، خلف مسرح

مهجور . كان عدد الحاضرين أربعين تقريبا ؛ يحمل كل منهم رداءه الخاص اما في حقيبة صغيرة ، أو كيس من الورق ، أو ملفوفا في جريدة . كانوا يدخنون ويتحدثون بصوت منخفض ، في انتظار الاوامر .

وراح كارتر يطابق الحاضرين على قائمة أرقام بيده. وبعد أن اطمأن الى حضور الجميع ، أشار الينا بأن نتحلق حوله ، ثم قال : « حتى الآن كل شيء على ما يرام ... لا تلبسوا ارديتكم ، بل تفرقوا متوجهين الى مقهى دنكو... ثم ادخلوا فيها ، وراقبوا بدقة ان كان هناك من يتعقبكم » .

يقع هذا المقهى في الطرف الشرقى من أتلنتا ؛ وهو يفتح طوال الليل ، ويُقدم فيه (الستيك) الفاخر . وقد ألفنا – نحن المغاوير – أن نلتقى فيه للعشاء ليلة في كل شهر . بيد انى لم استطع ان أخمن لماذا أمرنا كارتر بالذهاب اليه ، ونحن في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل . وتساءلت في نفسى عما اذا كان كارتر يريد ان ينتقم من صاحب المقهى الزنجى ؛ فلقد رفض هذا في المرة السابقة أن يطعمنا ، حين اكتشف اننا من رجال الكلان .

وحاولت – وانا في طريقى الى المقهى – ان اتصل بمساعد المدعى العام . سرت ببطء حتى بلغت منعطفا ؛ فأطفأت أضوية السيارة ، ورحت أتطلع في مرآة المنظر الخلفى . رأيت في أثرى سيارة مطفأة الانوار – فمن هم فيها ... رجال ديوك أم بعض الاخوان يجعلوننى تحت

أعينهم ؟ لقد كانت السيارة على بعـد لم أستطع معـه أن أتبين ذلك ٠

جربت ان اتملـّص منهـا بالاسراع تارة ، وبالابطـاء تارة أخرى ؛ فأخفقت في الحالتين ٠ فاستدرت حول زاوية، واطفـأت الانوار والمحرك ٠ فتدحرجت السيارة في طريق خاص يؤدى الى مدخل منزل ٠ فبدأ على الفور كلب ينبح من الداخل ، فأدركت ماذا سيحدث اذا ما تنبـّه من في المنزل ٠ وبدا لي الوقت طويلا حتى بلغت السيارة الاخرى الزاوية نفسها ؛ فحبست أنفاسى متوقعا انها ستقف بازائى ؛ بيد انها قد تردّدت قليلا عند المنعطف ، ثم انطلقت في الشارع تاركة وراءها غيمة من التراب ٠

واشتد نبـاح الكلب ، وارتفع اكثر من السـابق ٠ فجعلت أقول لنفسى : هل أفلت من المطاردين ، لأقـع في يد صاحب هذا البيت ؟ وأدرت المفتاح ، فما كاد المحرّك يضج حتى سـطعت الاضواء داخل المنزل ٠ فرجعت الى الخلف في لحظات ، ثم اندفعت في الشارع الرئيس ٠

لقد أزعجتنى السيارة التـى كانت في أثرى لسببين : الاول ، ان المطاردين اذا كانوا من مغاوير الكلان ، فمعنى ذلك انهم يشكون في ٠ وقد كانوا منذ وقت يبحثون بمنتهى الجهد ، عن جاسوس قد تسلـّل الى داخل الجمعية ٠والثانى، ان هذه المطاردة كانت سوف تمنعني من الاتصال برئيسي ، لأخبره بمكان التجمع الجديد ؛ لا سيما اذا أخفق رجاله في الوصول اليه بأنفسهم ٠

توجهت الى محل لبيع الادوية يفتح طوال الليل لاستخدم الهاتف · ورحت أدور حوله مرتين قبــل ان ادلف اليه · وحين اتصلت برئيسى أعلمنى بما أثلج صدرى ـ أعلمنى بأن رجاله قد اتصلوا به فأخبروه بأنهم قد فقدوا اثر سيارة عائدة للجمعية · فعلمت انــى كنت طريدا لهؤلاء ! وقال ديوك بعد ان اخبرته بما عندى :

ـ لقد أحسنت باعطائى هذه التفاصيل · ان رجالى سوف يتصلون بى في خلال خمس دقائق ، وعندئذ سأرسلهم الى المقهى ·

وانطلقت بأقصى سرعة ، لكيلا يضيع المزيد من الوقت· ولم ألحظ في هذه المرة من يتبعنى · كان كارتر واقفا لدى الباب ، فأمرنى قائــلا : البس رداءك ، ولــكن لا تضــع قنــاعك ·

كان المغاوير قد تجمعوا في غرفة الطعام الخاصة التى كنا نلتقى فيها ؛ وهم جلوس حول مائدة طويلــة أعدّت بصف عدة موائد صغيرة · لقد طلب اغلبهم (الهامبركر) ؛ وقدم اليهم كارتر عددا مــن قنــانى (الويسكى) الرخيص اكراما لهم على ولائهم · لقد كان منظرهم مريعــا ، حتى وهم بدون أقنعتهم ·

كنت آخر من وصل · فاتخذ كارتر مكانه عند صدر المائدة · ثم بادرنا بهذا السؤال :

ـ هل لاحظ أى منكم من يتبعه ؟

فأجبت على الفور :

ـ أجل ... لقد كانت في اثري سيارة مطفأة الانوار، مملوءة برجال ديوك . وقد قضيت وقتا عصيبا في التخلص منهم ؛ وهذا هو سبب تأخري . ومما لا مرية فيه ، ان هذا الجاسوس اللعين لما يزل يمارس مهمته بين صفوفنا !

فحدّق كارتر فيّ ، ثم رمش بعينيه ، فسأل :

ـ هل أنت متأكد من انك قد تخلصت منهم ؟

ـ كل التأكد .

فالتفت الى الآخرين ، فسأل :

ـ هل تُعقب أحد آخر ؟

فقال ناثان جونز :

ـ أجل ... لقد جروا في أثري ايضا ؛ ولكنى تخلصت منهم في النهاية . لقد أحرقت مزيدا من الوقود ، فأريد ان يدفع لى ثمنه !

فانفجر الاخوان في الضحك ؛ ولكن كارتر صرخ قائلا:

ـ ليس هذا مما يضحك ... ان يهوذا الذى كنا نحاول اصطياده طوال الوقت الذى مضى ، انما يجلس في هذه الليلة بيننا ، وعند هذه المائدة ! ولكني قد عرفته أخيرا ! وقد دعوتكم الى هذا المكان لأُطبق عليه الفخ ، ثم أنزل به العقاب اللائق .

كانت ليلة من ليالي كانون الثاني ، فنحن في صبّارة البرد . ومع ذلك ، راح العرق يتصبب تحت ردائي .وصرخ عدد من الحاضرين :

ـ أذكر اسم الخائن !

وكنت مع الصارخين ، ولو بأقل حماس ممكن ٠

قال كارتر وهو يبتسم ابتسامة كالحة :

ـ هدئوا روعكم !

ثم راح يتفرّس في وجوه الحاضرين ، ويلعب معنا لعبة القط والفأر ٠ وقد خطر لي أن أمرق نحـو الباب ، لأنجو بجلدي ؛ ولكن تذكرت ان كارتر لم يترك حارسـا عنده ، فلا بد من انه قد أغلقه ٠ ثم جعلت أفكر في الاحتمالات اذا أنا أمطرت الحاضرين وابلا من الرصاص ، وأفلـّت من بينهم بالفعل ، فلم تكن تلـك الاحتمالات مشجعة ٠ ولاحظت أن كارتر يحتفظ باحدى يديه تحت المائدة ؛ فحملني ذلك كله على أن أستقر في مكـاني ، وسيل العـرق ينهمر من كـل جـوانبي ٠

قال كارتر : لقد طلبت اليكم أن تحضروا مستعدين ٠٠٠ فلننظر ماذا أعددتم للعمل !

ثم اخرج من تحت ردائه مسدسا خاصا برجال الشرطة ، فوضعه على المائدة ٠ فأعقبه المغاوير يطرحون على المائدة أنواع المسدسات ، والسكاكين ، والسياط ، والهراوات ٠ وأدليت أنا بدلوي ، فوضعت مسدسي ٠ وقد أدركت الآن أن كل أمل في الهرب قد صار معدوما ٠

وصاح أحد الاخوان :

ـ نحن مستعدون كل الاستعداد ٠ اذكر اسمه فقط !

فطفت على الحاضرين موجـة من اللعنات ؛ وتعـالت ضجتهم كنبـاح الكلاب وهى تهـم بالاطباق على فريسـة : وتردّدت بينهم هذه الصيحة : دعنا نفتك به !

وظل كارتر يبتسم ويراقب . فصرخ أحد الرجال :
ـ ماذا سنصنع بهذا الجرذ ؟
قال كارتر :

ـ أنتم تعرفون العقاب ... انه الموت على يد أحد الاخوان .

فصاح أحد المتحمسين :

ـ دعونا نأخذه الى الغابة ، فنربطه الى جذع شجرة ثم نضع حلقة حول خصيتيه ، فنشعل النار في الجذع . ثم نقدم له سكينا فنقول له : أقتل نفسه أو احترق !

ولم يكتف الحاضرون بهذا الحل ، فأقبلت الحلول الاخرى بشكل مكثف سريع ؛ وكان كل حل لاحق أفظع من السابق . قال كارتر :

ـ لقد انتظرنا طويلا لنضيّق الخناق على هذا الجرذ. ولكل منكم مطلق الحرية في الفتك به . أما أنا فسأبدأ بايقافه أمام أحد مذابحنا المقدسة ، ثم أهرى به ذراعيّ حتى المرفقين !

وظهر واحد حريص على البروتوكول ، فسأل :
ـ ألا تظن أننا ينبغي أولا أن نطرده من بيننا كمواطن في امبراطوريتنا الخفية ؟

فأجاب كارتر بلهجة خطيرة :

ـ اننا اذا فتكنا به ... لا يعود بحاجة الى الطرد !
وكان للطرد مراسيم طويلة ، تبدأ بمحاكمة صورية ، وتنتهي بدفن رمزي للمطرود .

هنالك أدركت ان كارتر لا يعرف الجاسوس ؛ وانما هو يتهدد ، ويراوغ ثم يسير في طريق مظلم . وكدت أبتسم لهذا الخاطر ، ولكن لم أفعل ؛ لأن الرجل كان من دقة الملاحظة بحيث يستطيع أن يفسّر هذه الابتسامة في مثل هذا الوقت . وقد فاتني أن أفطن أيضا الى ان كارتر ربما كان قد نصب مصيدة ، وجل ينتظر من الجاسوس أن يقفز فيلقى بنفسه بين فكيها . فلمت نفسي على هذه الغفلة ، وتناولت جرعة طويلة من الويسكي ، ثم أقحمت نفسي في المداولة بحماس أكثر من السابق .

وحين لم يعد يستطيع أن يحجز الرجال أكثر مما فعل ، نهض كارتر فقال بلهجة متكلّفة :

ـ أيها الاخوان ... ويا أيها الفأر القذر ... اني آسف لأني اضطررت الى ان أخيّب ظنكم ؛ فينبغي ان نؤجل القتل الى أمد قصير . اني لا أعرف من هو الجرذ ، ولكني رجوت أني اذا مددت له حبلا قصيرا ، فقد يعلّق نفسه به حين يحاول الهرب . اني أتمنى ان لو فعل . وليس بوسعي أن أفهم كيف يتجرأ أي رجل على خيانة الكلان وهو يعرف العقاب . وعلى كل حال ، لقد ضيقنا نطاق الشبهة حتى انحصرت في سبعة وثلاثين رجلا ـ وهم الحاضرون في هذه الغرفة ! اننا جادّون في أثره ... وسوف يزداد هذا الجد طوال الوقت . ان لجنة التحري لدينا تضم أحسن رجال الشرطة في أتلنتا ، فلن ينعم هذا الفأر بالحياة طويلا ! اني أود أن أهنأكم على سرعة التحرك في هذه الليلة . هناك عمل جيد وكثير ينبغي القيام به ، وسوف نفرغ له بعد أن

نتخلص من الفأر ؛ ذلك لأنه مادام في وسطنا ، فان أيدينا مغلولة ... اقبضوا عليه أعدكم بأننا سوف ننير السماوات بصلبان من نار ! سيكون لديكم كل ليلة شيء تفعلونه ! انزعوا أرديتكم وانصرفوا الى بيوتكم ، واذا أوقف رجال ديوك أيّا منكم ، فتذكروا شيمة المغوار ــ ليس الاستعداد حين يدعى فقط ، بل أن يكون له شفتان مشدودتان ! انكم اذا أغلقتم أفواهكم فلن يظفروا بكم .. انصرفوا .

فراح الجميع يهجمون ويتدافعون للوصول الى ما تبقى من الويسكي ، وساد بينهم السفه والتهتك : ولكن المهمة الخطيرة قد نسيت ، فلم يقترح أحد طريقة جديدة لمعاقبة الفأر .

أما أنا فلم أكن في حياتي أسعد مني في تلك اللحظة ـ لقد نجوت من خطر عظيم !

المحتـــويـات

الموضوع	الصفحة
المقدمـة	٣
الوسيط	٧
صنم سان ڤيتور	٣٠
انهم يعيشون في خطر	٤١
أوديت ... لن تعترف	٤٩
« جوى » تضلل اليابانيين	٦٣
مطاردة في شوارع أنقره	٧٢
خائن آرنهم	٨٣
الرجل الذى تاجر مع هملر	٩٩
جريمة العصر	١٠٨
اختفاء العالم الذرى	١٢٦
هرب موظف الشفرة	١٣٧
اعتراف	١٤٧
قضية پتروف	١٦٠
في عرين الاسد	١٧١

رقم الايداع ٩٦٣ في المكتبة الوطنية
ببغداد لسنة ١٩٨٧

الطبعة الأولى
١٩٨٧

مطبعة أسعد

غزاة في الظلام

وقــائع من الخدمــة الســرية

مدحت الجادر

مكتبة النهضة ـ بغداد

غزاة في الظلام

وقائع من الخدمة السرية

* عملية شيشرون
* فضائح دبلوماسية
* نساء في الخدمة السرية
* اصطياد الجواسيس
* الرجل الذي تاجر مع هتلر
* سرقة أسرار الذرة



مكتبة النهضة ـ بغداد

مطبعة بابل

الثمن [illegible] دينار